مصطفى لغتيري

تراتيل أمازيغية

رواية

مصطفى لغتيري

تَرانِيمُ أُمازِيغِيَة

روايَة

❖ كتاب : تراتيل أمازيغية
❖ تأليف : مصطفى لغتيري
❖ الإخراج الفني والغلاف : مناف نفاع
❖ الطبعة االثانية : 2018
❖ جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
❖ الإيداع القانوني : 2018MO4573
❖ ردمـك: 978-9920-9586-1-5
❖ الناشر: غاليري الأدب

مطبعة وراقة بلال ش.م.م
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
S.A.R.L

N°100 Av. Sidi slimane Rue Al Madina Al mounawara
Hay Al Amal, Narjiss FES
Tél/Fax: 05 35 61 86 03 - GSM: 06 61 68 70 55
Imp.bilal@gmail.com - www.imp-bilal.com

الفصل الأول

أبي ملك.. هكذا فتحت عيني على حياة مختلفة، تفرض علي التعامل مع من حولي بشكل مختلف.. الجميع يعاملني على هذا الأساس.. ابن الملك حضر.. ابن الملك قادم... ابن الملك سيغادر مجلسنا... ابن المالك يلعب.. ابن الملك سينام... من فرط سماعي لهذه الكلمة نسيت اسمي الحقيقي "غيلاس"، الذي لا أكاد أسمعه إلا في القصر، وفي فترات متباعدة. حتى أمي لا تناديني به إلا نادرا. يستهويها هي الأخرى أن تقول " ها هو الملك الصغير يشرفنا بإطلالته" .. كان علي أن أتقمص الدور بشكل كلي، وأن أنسى جميع الصفات الأخرى، التي من الممكن أن أحصر نفسي فيها، و أن أجتهد لأتماهى مع ما أصبح دارجا على ألسن الناس من حولي.. كنت فقط "ابن الملك" أو "الملك الصغير"، لذا كان علي أن أكون مختلفا عن باقي الأطفال.. حين أجتمع بالأطفال من سني أو الذين يكبرونني قليلا أو يصغرونني، أرى في أعينهم تلك النظرة المتذللة، التي تجعلني أشعر بالاختلاف، و حينما ألعب معهم

كان علي دوما أن أكون الغالب والمنتصر.. وعندما أمضي في طريقي نحو مكان ما، اشعر بأن الجميع يتعمد أن يكون خلفي، فلا أحد يتقدمني، فاعتدت على ذلك، ولم اعد أتصور نفسي في غير هذا الوضع ..

من بين متعي الصغيرة، التي أدمنتها كثيرا، التفرج على الأطفال وهم يتعاركون فيما بينهم.. أشعر بمتعة لا تضاهي وأنا أرى هذا الصراع بين الصغار.. يقتحمني حينذاك إحساس بأنني قادر على المشاركة في هذا النوع من المنافسة، بل والتغلب على الجميع، وحين تحذوني الرغبة للقيام بذلك، كنت أشعر بنوع من التواطؤ الخفي، الذي يجعلني دائما أكون المنتصر، وكأن الجميع اتفق على ذلك، دون أن يخبروني بالأمر، لقد تعلم الصغار الدرس من الكبار، و استوعبوه جيدا.. الملك ابن الآلهة، لا يمكن لأحد أن ينتصر عليه، ومن تمرد على ذلك، تحل عليه اللعنة إلى الأبد .. بالتأكيد كان يستهويني ذلك إلى أبعد الحدود، و يرسخ في ذهني أنني يجب أن أكون هكذا، قويا و لا أحد يفوقني بأسا وشدة، لأنني ابن الملك و سأصبح

ملكا بعد حين.. أتذكر يوما أن طفلا يبدو مختلفا عن الآخرين، دخلت معه في صراع، تشابكنا بالأيدي، وما أن فعلت ذلك، حتى شعرت بالندم، أحسست بصلابته، وبأنني أبدا لا يمكنني أن أنتصر عليه، لم يبد الطفل أي ليونة تجاهي، بل عبر عن قوته بلا خوف أو وجل. أخرجت ما في جعبتي من قوة، أحكمت قبضتي عليه، لكنني بعد فترة قصيرة شعرت بنفسي ينقطع، وقوتي تضعف، وكنت على وشك أن أستسلم وأسقط أرضا، كان الجميع يتفرج على المشهد غير مصدق لما يحدث.. لا أدري كيف تدخلت – فجأة – قوة غير متوقعة، أسقطت الفتى أرضا، فتمكنت من التغلب عليه .. لقد كان بالقرب منا أحد جنود أبي، يتتبع عن كثب كل ما يحدث لي.. حين لاحظ ما يحدث لي، تسلل نحونا، امتدت يده نحو الصبي، ضغط عليه بقوة، فارتخت قبضته، وبطريقة ما سقط أرضا.. وهكذا انتصرت انتصارا مغشوشا، لكنه انتصار أنقذ مكانتي لدى الأطفال من حولي، لقد فسر الجميع الأمر بأن "الملك الصغير" لا يقهر أبدا، وأن الآلهة تتدخل دوما لإنقاذه بطريقة من الطرق،

وبأشكال غامضة في كثير من الأحيان لا يفقه كنهها أحد. ربما لهذا السبب تسلل اليأس إلى قلوب الجميع، ولم يعد أحد يطمع في التغلب علي. فمهما كانت قوة الصبي الذي أصارعه، فإنه مقتنع بأنني لابد قاهره، لأن القوى الخفية لا يمكنها إلا أن تكون في صف الملك الصغير، إنها تسانده دوما في كل كبيرة وصغيرة، ولا يمكنها أبدا أن تتخلى عنه.. هناك حلف قوي بينها وبينه، توارثه أبا عن جد، هو يقدم لها القرابين وهي ترعاه بقوتها الخارقة التي لا تقهر.. هذا الاقتناع الراسخ لم يعشش فقط في أذهان الأطفال، بل يؤمن به حتى الكبار كذلك، أنا نفسي كنت مؤمنا به، لذا لا أتصور أبدا أن أنهزم في أي نزال..

ذات ليلة سألت جدتي الطاعنة في السن عن سبب هذه الحماية التي أتمتع بها دونا عن غيري، فحكت لي الحكاية كما يتوارثها الناس في مملكتنا الصغيرة قائلة:

" تعرف أيها الملك الصغير أن مملكتنا تقع على مشارف الجبل، وتتمدد أراضيها حتى النهر الذي لا يعرف أحد من أين

ينبع، ولا أين يصب، لكنني أنا أعرف أنه هدية لنا خصتنا به الآلهة دون غيرنا من الممالك، التي تعيش قحطا مستمرا..

في تلك الجبال الشامخة تنتشر كهوف بلا حصر، تعيش فيها الأرواح المقدسة، أرواح أجدادك منذ غابر الأزمان، التي ما إن تغادر أجسادها حتى تأوي إلى تلك المغارات، لتستقر هناك ساكنة مطمئنة.. يحدث في بعض الأحيان أن تغادر تلك الأرواح الكهوف، بعد أن تتقمص أجساد حيوانات، تختلف حسب طبيعة الروح التي تتقمصها، ورغم قوتها التي لا يمكن أن تضاهى، فإنها ما إن تتحول إلى حيوان ما وتغادر الكهف، حتى تفقد قوتها السحرية وتصبح معرضة للأخطار من كل نوع..

تسللت يوما روح تائهة إلى جسد خنزير بري، و مضت في طريقها تنتقل من مكان إلى آخر، تستمتع بالنور الذي حرمت منه نفسها زمنا طويلا.. التجأ الخنزير البري لبعض الوقت إلى ظلال شجرة " أرز" ضخمة، احتك بجذعها الكبير، ثم ما لبث أن غادره إلى مكان آخر، حيث يوجد غدير ماء لا يكاد يعلن عن نفسه.. في تلك الأثناء ظهر عدد من السكان المحليين

فحاصروا الخنزير البري، وأخذوا يرشقونه بسهامهم المسننة الحادة.

أصابت الخنزير البري بعض السهام، فأفرج عن أنين متوال، ملأ الغابة بصوته الحزين المتفجع، الذي لم يشفع له لدى الأهالي، الذين كانوا تواقين لصيد ضحيتهم .. في تلك الأثناء كان أحد أجدادك القدامى مارا من هناك ممتطيا فرسه، يجوب الغابة كعادته.. وصله الأنين، لكنه كان أنينا مختلفا، وكأنه نداء من أجل أن يهب لإنقاذه .. خف جدك بفرسه نحو مصدر الصوت، فرأى السكان المحليين جادين في اقتناص الخنزير البري المحاصر.. نظر من بعيد إلى الحيوان فرأى في داخله روحا تترنح، محاولة مغادرة الجسد الجريح... أحس وكأن رسالة ما ألقيت في روعه، تحثه على القيام بما يستطيعه من أجل إنقاذ الحيوان.. شهر جدك سلاحه ضد السكان، وركض بفرسه نحوهم، أخافهم الفرس النافر، والفارس الشجاع، الذي بدا لهم قويا، ولا حيله لهم في مواجهته... فر السكان مذعورين.. وتقدم الجد نحو الحيوان، الذي استكان في

مكانه...دنا منه بشكل كبير.. اطمأن له الحيوان، ولم يأت بأي حركة أو نأمة، فقط تمدد مجهدا ..أشعل جدك نارا، وعالج الخنزير البري بأعشاب برية يعرف فائدتها، واستمر في معالجته هناك أياما و ليالي دون ملل أو كلل..

حين عولج الحيوان، انتفض واقفا، ومضى في طريقه والجد يتبعه بفرسه، حتى بلغا مدخل الكهف.. تسلل الحيوان داخله، فيما تمدد الجد في مكانه منتظرا ما يمكنه ان يحدث، لكن النوم سرعان ما غلبه ..راح في غفوة لم يعرف كيف سحبته إلى أحضانها الدافئة.. ما إن فقد الصلة بالعالم من حوله، حتى وجد نفسه وجها لوجه مع روح تتشكل في هيئات مختلفة.. لم يرعبه ذلك، وإنما ألقى عليه ببعض السكينة ، التي كان في أمس الحاجة إليها . سأل الجد الروح التي تبدت له غير واضحة المعالم :

– من أنت؟

– أجابت الروح :

– أنا الروح الساكنة هذا الكهف، وأشكرك على إنقاذي.

لم يفهم الجد القصد من كلامها، لكنها أشارت إلى الخنزير البري، الذي ظهر في الحلم وديعا وهادئا، ثم أضافت:

– سأمنحك الملك، وسأحميك وأحمي سلالتك.

ابتهج جدك بكلام الروح، و تمنى لو يسألها كيف يحدث ذلك، وهو الفارس المتنقل من مكان إلى آخر منذ أن طرد من قبيلته، لكنها أشارت عليه بالصمت، وأردفت قائلة:

– سأفعل ذلك بطريقتي، لكن عليك أن تقدم قربانا سنويا إلي.. اذبح كبشا أو ذكر ماعز، وضعه في مدخل الكهف، ثم اتركه وارحل.

ترك جدك الذي اسمه" أكيلي" المكان، بعد أن اطمأنت نفسه إلى ما فاهت به الروح، التي أنقذها بشجاعته.. امتطى صهوة فرسه، وتدحرج نحو السهل.. هناك تقدم بخطوات حثيثة نحو وجهة لا يعلمها، وقد كان الناس في السهول قد تداولوا فيما بينهم خبر الفارس الجبار، الذي انبثق فجأة من خلال أشجار الأرز، ممتطيا فرسه، الذي يخب بأناقة وأنفة وقوة، فأرعب كل من وقعت عليه عيناه..

في السهل كانت مملكة صغيرة، قد قضت أسرتها المالكة في حدث مؤسف، لقد تلقى الملك دعوة من مملكة "جراوة" البعيدة، وهي مملكة أمازيغية كانت تحكمها ملكة كاهنة، ذاع صيتها في ذلك الزمان، ونسجت عنها القصص الكثيرة، حتى أن جميع الملوك كانوا يطلبون ودها، لكن حظ الملك السيئ قاده إلى طريق صعب، مليء بالأحراش، ومنقطع عن باقي العالم.. هناك تعرض الملك لغارة من قبل قطاع الطرق، فمات الحرس وقتل الملك وأسرته.. حين وصل الخبر إلى المملكة تداول كبارها في الأمر، ولم يصلوا إلى حل يرضي الجميع، فقد رغب كل منهم في أن تكون المملكة من نصيب القبيلة، التي ينتمي إليها.. حين استعصى الأمر عليهم قرروا أن يؤجلوا الحسم في أمر الملك، لكن أحد حكماء المملكة، حذرهم من التباطؤ في اختيار الملك، لأن التردد سيحفز باقي الممالك للتهافت على المملكة الصغيرة وضمها إليها، فاقترح أن يولوا عليهم رجلا غريبا عنهم ،حتى يدبروا الأمر بينهم.. وما إن سمعوا بأمر الفارس الغريب حتى لمعت الفكرة قوية في ذهن

الحكيم، فأخبر القوم بأنه رأى رؤيا، لا يدري أحد إن كانت قد رآها حقا أم ابتدعها لإنقاذ المملكة، فحكاها أمام الجميع:

رأيت في منامي ليلة أمس أرواح أسلافنا تحيط بالمملكة من كل جانب حاملة فارسا غريبا يرتدي جلود الماعز، ويضع على كتفيه فروة أسد، ويمتطي حصانا لم ير أحد أجمل ولا أقوى منه.. سمع الناس الرؤيا وصدقوها، وتطوع بعض السكان الذين التقوا الفارس في الغابة، وهم ينوون الإجهاز على خنزير، بأن أخبروا الجميع بأن الفارس موجود، وهو ينتقل في الغابة، يحمي وحيشها من البشر.

وبينما هم يتجادلون في الأمر، إذ طلع عليهم بغتة الفارس شاقا الضباب الكثيف الذي كان يحيط بالمكان.. تعلقت به الأبصار، وهو يخب بفرسه نحوهم، فما لبثوا أن أحاطوا به، وهم يرحبون بقدومه هاشين باشين.

ترجل الفارس، و اقتعد الثرى رفقة كبارهم، فخاطبوه قائلين: أنت ملكنا.

ابتسم الفارس " إكيلي" وهو يتذكر نبوءة الروح الساكنة في أعماق الكهف، نظر إلى الجميع بسرور، ثم قال لهم:

– قبل أن أجيبكم لابد من تقديم القرابين إلى الأرواح في كهوف الجبال.

رحب الجميع بالفكرة، ورأوا فيها ما يطمئنهم إلى أن الفارس رجل مؤمن سيسهر على تقديم الطاعة والولاء للأسلاف، الذين تسللت أرواحهم نحو الكهوف.

ذبحت الذبائح، ووزعت على الكهوف، فرضيت الأرواح بذلك، ومنحت بركتها للمملكة وتعهدت على أن تحميها من كل شر وأن تبارك سلالة " إكيلي" على مر العصور والأزمان.

هكذا يا بني، أيها الملك الصغير فأنت كنت وستبقى دوما في حماية الأرواح، فقط عليك أن تحافظ على عادات أجدادك بتقديم القرابين لأرواح الكهوف، ولآلهتنا التي لا تبخل علينا بالحماية".

شغفت منذ طفولة بركوب الخيل. لاحظ أبي الملك هذا الشغف في عيني وفي سلوكاتي، كنت كلما رأيت حصانا أو

فرسا تسمرت في مكاني لا أبارحه. أظل أتملي في طلعة الحيوان، أنجذب نحوه بقوة، لا أملك أمامها قدرة على المقاومة.. أنظر بتمعن إلى قوائمه الطويلة الصلبة، التي تشبه العيدان القوية، أستغرق النظر في رأس الحيوان المستطيل، أتملى في عينيه الجميلتين، وسمته الملكي الأخاذ، أفضل أوقاتي أقضيها في صحبة الخيول، يمكن أن أقضي يوما كاملا دون أن أفعل شيئا سوى التملي في هيأتها.. أنتقل من حصان إلى آخر.. تبدو لي متشابهة إلى حدود الإرباك، مع مرور الزمن أصبحت أميز الاختلافات فيما بينها.. إنها رغم التشابه الواضح والخادع، فلكل منها شخصيتها المختلفة.. بدأت أميز الذكور عن الإناث، ثم أخذت تدريجيا أعرف الشباب منها والطاعنة في السن، بعد ذلك أصبحت أفرق بين القوية، التي يمكنها أن تحمل الفارس لمسافة طويلة، وتلك المجهدة التي لا تقوى على ذلك.

حين رأى أبي الملك هذا الاهتمام الذي أوليه للخيل، لم يخف غبطته بذلك، بل صار يحدث به مجالسيه، ثم ما لبث أن أهداني حصانا اخترته بنفسي، و أطلق عليه أبي اسم "أودجاك".. ربما أراد من التسمية أن تكون محفزا له، ليكون كالرعد، يهزم كل الأصوات الأخرى حين ينطلق في الأجواء، لقد تيمن أبي بهذه التسمية، وكان يستهويه أن يرددها، فكلما صادفني في مكان يسألني باحتفاء:

– "كيف حال " أودجاك " ؟

فأرد باستحياء:

– " إنه بخير يا أبي"

أصبحت أقضي أكثر وقتي مع " أودجاك ".. ننطلق في رحاب البراري الشاسعة، التابعة لمملكتنا العامرة.. نجوب كل الدروب والأماكن التي تغرينا بالانطلاق فيها، نستمتع بالركض والهواء المنعش الذي يداعب وجهينا.. لقد أحببت " أودجاك " الذي كان شبيها بالريح والرعد وكل الظواهر الطبيعية التي طالما حيرتني.

كنت أستعيض به عن الصحبة البشرية، فكل الأطفال في سني كانوا يهابونني، ويعاملونني بكثير من التحفظ، لذا لا يمكن أن يكونوا لي أصحابا.. دوما يبدون أمامي الكثير من التزلف والتذلل، فلم ترتح نفسي لأحد منهم. كنت أحدثهم فقط حينما تستوجب الضرورة القصوى ذلك، ولا أختلط بهم إلا في مناسبات محددة، لكن في أعماق أعماقي كنت متأكدا بأن قدري سيقودني إلى رفقة طيبة، أسعد بها وتسعد بي، ولم أكن مستعجلا لتحقيق ذلك.. لقد كنت ملكا في انتظاري، لا أستعجل حصول ما سيحصل.. كانت جدتي تخبرني دوما، وهي ترنو إلي كملك في المستقبل، بأن لا أستعجل الأمور، وأتعلم كيف أمتلك ميزة الصبر، دوما كانت تصوغ حكمتها ببلاغة تامة، وهي تقول:

" أن يبقى المرء وحده، خير من أن تكون له رفقة سيئة"..

لقد اتخذت " أودجاك " لوقت طويل رفيقي الأمثل.. أحكي له بعض ما يجول في خاطري، وكان من جانبه يصغي إلي

بكثير من التأمل والوقار.. عيبه الوحيد أنه لم يكن يرد علي، لكنه غالبا ما كان يقوم بحركات تجعلني أشك شكا عميقا وقويا في أن لهذا الحيوان عقلا يفقه به.

حينما أشعر بتعب " أودجاك " كنت أسمح له بأن يستريح مني ومن الركض.. أدعه يسرح في البراري، وأنا أراقبه عن كثب، في تلك اللحظات أهيم على وجهي في ملكوت الطبيعة.. يأسرني ذلك العطاء المتدفق، الذي لا حدود له.. أتتبع أشجار الزيتون المثمرة، أتملى في أغصانها المتشابكة، أتوقف عند وريقاتها الصغيرة ذات اللون الأخضر الشاحب الذي لا يكاد يعلن عن نفسه.. تفتنني تلك الحبيبات الناتئة المتناهية الصغر، التي ستكبر يوما وتكتسب ألوانا زيتية مختلفة، يجد المزارعون في جنبها وعصرها في معاصرهم الحجرية التي لا يكاد مكان يخلو منها... أعرف يفخر أنني أنا ابن الملك سأتذوق زيوت هذه الثمار، باختلاف أنواعها لقد دأب المزارعون على حمل جزء من غلالهم إلى بيت الملك، كانوا يفعلون ذلك كواجب مقدس لا يتهربون أبدا من أدائه.. يعرفون

أن للملك حاشية وجيشا يدفع عنهم البلاء والخطر، كلما تحرشت بهم قبيلة أو المملكة.

في المساءات السادرة في فتنتها حين يحين للشمس أن تحتجب، ويتمدد على العالم من حولنا غطاء شفيف، تكتسحه الظلمة بشكل متدرج، أقفل عائدا نحو القصر، أراه من بعيد فيعرش في قلبي الفرح.. أتقدم نحوه بكثير من الثقة والفخر، أصل إليه بعد لحظات.. هناك أقود الحصان نحو الإسطبل، وادخل حصن الملك المنيع، أغتسل مما علا الجسد من غبار، ثم أتوجه عند حكيم القصر، لأرتشف من معينه الذي لا ينضب، لقد كان الحكيم "يفاو" رجلا طاعنا في السن، غير أن له سمت رجل شاب.. عيناه متألقتان بوهج المعرفة، الذي لا يخفى على النظر، لا أمل من التطلع إلى تلك العينين النيرتين.. أطرح عليه أسئلتي التي تزداد كبرا معي. تقتات من ذهني، الذي أكتشف له بعدا جديدا كل يوم، فأتلهف أكثر إلى معرفة المزيد... كان الحكيم "يفاو" يعلم عن الدنيا أكثر من أي شخص آخر عرفته. يحدثني عن الآلهة والأرواح والأقوام

الأغراب، القريبين والبعيدين، يشمل علمه حتى أولئك الذين يقطنون ما وراء البحار، يحدثني عن تلك الأمم، التي تستوطن أرضا غير أرضنا، وهي جادة في البناء والحروب، كان يسعده أن يكرر دوما أن تلك الشعوب هناك وراء البحر شمال البلاد، لها آلهة قساة، تحرضها على القتال، تختزل الشجاعة في القتل وسفك الدماء.. عكس آلهتنا التي تميل إلى الأمن والسلام. فقط تدفع البشر ليذبح القرابين وتقديمها للأرواح الساكنة في أعماق الكهوف.. كنت أشعر برهبة عندما يميل الحديث إلى الإله " مغداس"، الذي يتحكم في أجساد وأرواح الأمازيغ على امتداد المعمور.. من خلال كلام الحكيم عرفت أن قومنا الأمازيغ موزعون على الأرض في قبائل لا حدود لها. يستقرون في السهول والجبال وفي أعماق الصحراء يعيشون في عزلة حادة. لا يكادون يتواصلون فيما بينهم.. كل قبيلة أو عدد قليل من القبائل تنصب على نفسها ملكا أو شيخا.. لكنهم لا يتحاربون فيما بينهم إلا ناذرا.. كانوا قانعين بقسمتهم هاته. أخبرني كذلك أن الأمم التي تعيش في الشمال وراء البحر،

كلما تعبت من محاربة بعضها البعض رنت بأعينها نحو الجنوب، فتعبر البحر مدفوعة من طرف آلهتها شديدة المراس، التي تمجد الحرب والبطولة، كي تنشب أظافرها في أجساد قبائلنا المتفرقة، فتقتطع أجزاء من أراضينا، وتبني فيها لآلهتها معابد، ولجنودها مسارح وحانات، وحلبات للصراع ، فإذا انتهت الحرب واستقرت لهم الأوضاع، ابتدعوا حربا من نوع خاص، حرب يختلط فيها الجد بالهزل، يدخلون إلى الحلبة رجالا أشداد يشتبكون مع بعضهم البعض حتى الموت، فيما يلتهي الجمهور بالصفير والضحك على إيقاع الدماء والموت والقتل..

حدثني كذلك بأن هذا القوم يلجؤون في أحيان عدة إلى حيوانات شرسة، يقتنصونها من أدغال الغابات والسهوب، يجوعونها، ثم يطلقونها في الحلبة، ثم يدفعون ببعض الأبطال الأسرى إلى هذه الضواري الجائعة، ينشب الصراع الدموي، يدافع الأبطال عن أنفسهم للحظات، لكن قوة السباع الجوعى تتغلب في نهاية المطاف، فينهشون ضحاياهم بلا رأفة ولا

شفقة، فيما يثمل الجمهور بالفرح، وهو يشاهد الدماء تنفر من الجسد اليائس الشقي، الذي يصبح بعد ثوان لقمة سائغة للضواري الجائعة.

بفضل الحكيم "يفاو" أصبحت قادرا على قراءة ما هو مخطوط على الجلود من كتابة، بل غدوت متمكنا من كتابة بعض ما يخطر في الذهن من هواجس وأفكار.. كنت في فترات معينة أطلع عليها الحكيم،"يفاو" يقرأها، فيستقر في عينيه حزن، لا يكاد يعلن عن نفسه.

حين تكرر ذلك، سألته ذات يوم:

– لم كلما قرأت ما أكتبه يتملكك الحزن؟

صمت الحكيم قليلا، بدا عليه الانشغال، فكر للحظات، ثم قال:

– اسمع يا بني. إنك ستكون ملكا في المستقبل، وما تكتبه يشي بروح شاعر، يهيم في الطبيعة والتوق إلى العدل والمساواة بين الناس، إن هذا الأمر لا يستقيم.. مهنتك المستقبلية تتطلب منك حزما وصرامة، وقوة وصلابة.. أن تكون

شاعرا أيها "الملك الصغير" يعني أن تضيع ملكك وملك أجدادك.. حاول أن تنأى بنفسك عن ذلك، حتى لا تتمزق نفسك وتتعذب. مهمتك كملك ستفرض عليك القيام بأمور ليست من العدل في شيء، ولا تمت للعواطف بصلة، لكنها ضرورية لصلاح أمر الناس في عامتهم، و ليس لكل شخص على حدة. فقد تظلم شخصا أو أكثر من أجل صلاح أمة.

أثقل علي كلام الحكيم " يفاو".. وضعته نصب عيني، وفكرت فيه كثيرا، فوجدت فيه كثيرا من الحكمة، لذا تجنبت أن أستغرق في تلك الحالات التي كانت تتملكني في فترات متباعدة، فأحس بضيق في نفسي، وعواطف جياشة تضطرب في أعماق ذاتي، تلك الحالات التي كانت تدفعني دفعا نحو الابتعاد عن الناس، وحمل القلم، الذي أصبحت قادرا على صنعه من القصب، وأخذ قطعة من الجلد، ثم أشرع في كتابة ما يتداعى في خاطري من أفكار وأحلام وتمنيات.. أصبحت كلما داهمتني تلك الحالة أهرع نحو " أودجاك ".. أمتطي صهوته، وانطلق كالسهم في اتجاه المجهول، وحين أغيب عن البصر

أترجل وأدع الحصان يستمتع براحته، وأقصد شجرة ضخمة أتسلقها إلى أعلى، أنزل ثم أعيد الكرة مرارا، حتى يداهمني الإنهاك، حينذاك أتمدد على العشب، استنشق الهواء ملء رئتي، حتى يستعيد جسدي طاقته، ويتحقق للنفس سلامها المتفقد، لحظتها أركب " أودجاك" وأمضي نحو القصر، أحصي خطوات الحصان التي تلهيني إلى حين عن التفكير في نفسي وفي العالم من حولي.

الحنين إلى رفقة إنسانية ظل يؤرقني، ولازمني هذا الأرق لمدة طويلة.. كلما تقدمت في السن شعرت بالحاجة القصوى إلى رفيق يشاركني أحلامي وطموحاتي وهواجسي.. لم تغرني رفقة أحد من أبناء المملكة، لقد كانوا ينافقونني، ولا أشعر أبدا بالصدق في حديثهم.. كانوا يعاملونني كملكهم المستقبلي، أو على الأقل كابن ملك، وهذا ما ضاعف من حسرتي، وجعلني أكتفي بوحدتي، حتى "أودجاك" حصاني الذي اكتفيت بصحبته زمنا طويلا، لم يعد يلبي رغبتي في البوح والمشاركة.. اقتنعت

أخيرا أنه مجرد حيوان، حتى وان كان يمتلك الكثير من المزايا، التي تخفف عن نفسي كلما داهمها التوتر أو الضيق..

الفصل الثاني

هذا الحلم باكتساب صديق سيتحقق بعد وقت طويل، في ذلك اليوم الذي كانت فيه قافلة قادمة من أعماق الصحراء، تحمل على ظهور الجمال والبغال كثيرا من البضائع، التي كانت تبهرني بتنوعها.. لقد اعتادت القوافل أن تحط الرحال لبعض الوقت في رحاب مملكتنا، قبل أن تستأنف مسيرها نحو الشمال أو الغرب أو الشرق، هنا في مملكتنا كانت تجد الضيافة اللائقة بها والأمن الذي تتوق إليه، وأكثر من ذلك زبناء يقتنون أكثر ما تأتي محملة به من الأماكن البعيدة، التي قدمت منها.. لقد عرفت مملكتنا بثرائها رغم بساطة أهلها ومنازلهم، رغم أن أكثرهم يفضل السكن في الخيام المنصوبة على امتداد البصر، ولا يبغون عنها بديلا، لكن غنى أراضيهم ووفرة ماشيتهم تجعلهم قبلة للتجار من كل حدب وصوب..

في اليوم المحدد لقدوم القافلة، تلقى القصر إشارة بذلك، فاقترح علي أبي الملك أن أرافق مموني القصر إلى حيث ستحط القافلة رحالها..

ترددت للحظات، لكنني مدفوعا بالفضول و رغبة أبي الملك قررت أن أرافقهم.. إنها تجربة أخرى تضاف إلى تجاربي التي راكمتها عبر السنين، فرغم حداثة سني كنت قد خبرت كثيرا من الأمور، وهذا ما كان يثلج قلب أبي الملك، ويحفزه ليدفعني للمزيد من اكتساب الخبرات الجديدة.. أسرجت حصاني، ومضيت مصحوبا بالممونين إلى المكان المعلوم، توقفنا هناك في مكان محدد، ثم توجهنا نحو القافلة حيث استقبلنا التجار بكثير من الترحاب.

إنهم يعرفون مغزى أن يزورهم موفدون من القصر، إنه كسب مضاعف، ورواج لتجارتهم، لم يكونوا يحلمون به أو يضعونه في الحسبان، فما إن يسمع الأهالي وخاصة الأغنياء منهم بأن الملك اقتنى من القافلة بضائع ، حتى يتهافتوا على اقتناء بضائع من شتى الأنواع، بضائع لا يمكن أن تخطر على الذهن، جلود حيوانات نادرة، خرز بأشكال مختلفة، عطور، وأثواب، وحلي وما لا حصر له من البضائع.

حين التقت عيناي بعينيه مادت بي الأرض، فخفت أن أفقد توازني، كان شابا قويا ومعافى وإن ظهر عليه نوع من الإجهاد.. عيناه شديدتا البياض، زادتهما بشرته السوداء بياض وبريقا متوهجا. نظر إلي بكثير من الإمعان.. شعرت أنه قد وقع في قلبه مثل وقع في قلبي. ناديت أحد الممونين، انفردت به جانبا، ثم قلت له:

– هل يمكن شراء ذلك الفتى ؟

نظر إلي باستغراب ثم قال:

– ألا يكفيك أيها الملك الصغير العبيد الموجدون في القصر؟

قلت له حاسما:

– لا أريد عبيدا .

رد علي باستغراب :

– وماذا ستفعل به إذن ؟

كنت سأجيبه بما وقر في قلبي، وكاد يلهج به لساني، لكنني فضلت الصمت، تركت لهذا الصمت أن يكون بليغا، يعبر عن حاجتي لذلك الشاب، تقدم الممون نحو التاجر، ثم قال له:

– بكم تبيع هذا العبد؟

نظر إليه التاجر مبتسما تلك الابتسامة التي يتقنها التجار ثم قال:

– آه هذا.. إنه يدعي بأنه ابن ملك .

حين قال التاجر ذلك خفق قلبي بشدة، وتيقنت بأن حدسي لم لم يخني.

قلت في نفسي:

" هذا يليق بصداقتي "

دفع الممون الثمن المطلوب، ثم خلص الشاب من قيده الجماعي، الذي كان يجمعه بأشخاص من نفس لونه، ثم قال للممون:

– أحكم قيده حتى لا يفر. أنا أخلي نفسي من المسؤولية عن ذلك.. حمل الممون قيدا، وتوجه به نحو الشاب، لكنني تدخلت، وقلت له:

– لا تقيده.

رد علي والدهشة تعلو وجهه:

– سيهرب إن لم نفعل .

اختلست نظرة معتذرة للشاب، الذي يبدو أنه فهم معناها جيدا، ثم قلت للممون :

– لن يفعل.. إنه ابن ملك.

استغرب الممون كلامي، لكنه أذغن لطلبي.

عدنا إلى القصر محملين ببضائعنا التي اقتنيناها من تجار القافلة.. حكى الممون لأبي الملك حكاية الشاب، وكيف أنني

أصررت على شرائه. لم يقل أبي شيئا، إنما ابتسم فقط، محاولا الإثبات للجميع بأنه يثق في اختياراتي.. كان الشاب صامتا، لكن في أعماق عينيه تألق ذلك البريق اللامع، الذي جعلني مشدودا إليه.. لم يتحدث، ربما لأنه يجهل لغتنا.. لم أيأس من ذلك، كنت على يقين أنه سيتعلم لغتنا بسرعة، فعلامات الذكاء، والبداهة بادية على ملامحه.

سألني أبي بشكل مفاجئ:

– ماذا ستسميه ؟

باغتني السؤال، ربما لأنني لم أفكر أبدا في هذا الأمر، لقد كنت على يقين بأن للشاب اسما، لذا رددت على أبي الملك :

– من سيدي؟

تدخل الممون ، فقال:

– يقصد الملك العبد.

احتججت على الممون قائلا:

– لا تخاطبه هكذا.. إنه ليس عبدا بل هو ابن الملك.

نظرت حينذاك إلى أبي منتظرا رد فعله على كلامه.. يبدو أنه وقع في نفسه حسنا.. أعرف أن الملك يحتاج إلى الصرامة والقسوة، ولكن أبي رأى في ابنه نصفه الطيب، الذي لا يمكنه أن يعلن عنه.. ابتسم ثانية، ولم يرد ولكنه كان ينتظر مني جوابا، في تلك اللحظة بالذات لمعت الإجابة في ذهني قوية، لقد حضرت في البال عيني الشاب اللامعتين ..كانتا قويتين وذات بريق لامع، فاستلهمت من توهجهما الاسم الذي سيطلق عليه، فقلت" أوسمان" أي البرق.

مرة أخرى نظرت إلى أبي فلمحت الاستحسان في نظراته.

أخذت صديقي الجديد في جولة في رحاب القصر، ثم أخذته إلى الإسطبل لأعرفه على "أودجاك".. رأيت في عينيه ذلك العشق الذي لا يخفى للفروسية، فقد انبهر بجمال الخيل وقوته، فكان يعبر عن ذلك بابتسامة رحبة استلقت على مبسمه، وبحركات إعجاب واضحة..

استأذنت الملك أبي وأهديت لصديقي حصانا أطلقت عليه اسم" تليلي" أي الحرية.

لقد أردت بإطلاق هذا الاسم على حصانه بأن يكون قويا ومنطلقا وحرا، يماثله تماما.. أسرجت " أودجاك " وأسرج "أوسمان" حصانه "تللي"، ثم انطلقنا في المروج، التي اكتست بالخضرة في كل جنباتها، حقيقة لقد أبهرني "أوسمان" بإتقانه لركوب الخيل، كان يعامل حصانه بحكنة واضحة، يعامله وكأنه صديق حميم قضيا معا وقتا طويلا، فيرد الحصان بحركات تشي بالانسجام الذي يجمع الفارس بفرسه.. في لحظة ما، وبإيماءة مني انخرطنا في سباق محموم، لم يتوان "أوسمان" في الاشتراك فيه، كل منا انطلق بكل ما يملك من قوة نحو الأمام، ما سرني حقا و أدخل البهجة إلى نفسي أن "أوسمان" لم يعاملني كابن ملك، بل كان لي ندا في كل شيء.. يتفوق علي وأتفوق عليه.. أتجاوزه لفترة من الزمن، ثم ما يلبث أن يمر بجانبي كالريح.. كالبرق.. كالإحساس العابر، الذي يخترق المرء بغتة، وسرعان ما يتجاوزه، يشرع في التنقيب عنه، فلا يعثر له على أثر.. يتجاوزني "أوسمان" بحصانه "تللي" فأحفز حصاني "أودجاك" على اللحاق بهما، يتوتر الحصان، يذعن

لرغبتي، فينطلق كالسهم، وما هي إلا لحظات حتى ألحق بـ"أوسمان" وحصانه، ثم أتجاوزه.. أسترق النظر إليه، فأرى على وجهه علامة تواطؤ ما.. أفهمها، فأخفف من سرعة حصاني، يلحق بي، فنصل إلى الهدف الذي حددناه سابقا متجاورين، لا يكاد أحدنا يتفوق على الآخر.. نترجل عن الحصانين. نتركهما ينعمان بالراحة التي يحتاجان إليها، ونتوه في المروج، ممتعين نفسينا بهذا الجمال الاستثنائي، وخيوط المحبة والأخوة تتشابك في غفلة منا بين قلبينا النابضين بالحياة..

في المساء، توجهنا طرا نحو غرفة الحكيم"يفاو" استقبلنا بلطفه المعهود، وأريحته التي يشهد بها الجميع.. أضفى حضور "أوسمان" للدرس مسحة خاصة، لقد كان الحكيم ينتقل من لغة إلى لغة بسلاسة.. يبسط أمامي درسه بلغتنا، ثم يترجم ما قاله لـ"أوسمان" بلغته الجنوبية السمراء، التي لا حظت أنها تتوفر على كلمات من لغتنا.. في هذه الحصة أتاح الحكيم لصديقي "أوسمان" فرصة الكلام، وطفق ينقل لي محتوى كلامه، حتى

أكون فكرة واضحة عن صديقي، الذي اختارته الأقدار ليكون رفيقي الأبدي، حدثنا أوسمان عن مملكته على ضفاف نهر النجر. قال عنها كلاما كثيرا، وصلني منه ما خمن الحكيم أنه يهمني أكثر، تحدث عن أسرته الملكة متعددة الأفراد، فالملك أبوه اتخذ له زوجات بلا حصر، كل منهن أنجبت عددا من الأبناء والبنات، حتى أن معرفتهم بأسمائهم تبدو مستحيلة، لكنه كان مفضلا عند أبيه الملك، و كان يسمح له بما لا يسمح به لغيره، يرافقه معه في زياراته للقبائل الخاضعة لحكمه، لقد كان يعده ليخلفه دون أن يصرح بذلك لأحد، حتى لا يحدث تنافس بين الإخوة، أخبرنا أنه لم يكن أكبر الإخوة، وإنما كان أنبههم وأشجعهم على الإطلاق، لذا نال الحظوة من طرف أبيه الملك و حاشيته..

في مملكته يتم الاعتناء بالبقر بشكل ملحوظ، وذكر عدد القطيع الذي يتوفر عليه هناك، فأصابنا بالدهشة، حتى كدنا نشكك في كلامه، لكننا لم نفعل لأننا لمسنا الصدق في كل ما يتلفظ به..

سأله الحكيم عن حكاية أسره، فرد قائلا:

"كنت مغرما بالصيد.. أتيه اليوم كله في البراري بحثا عن الطرائد، لقد كان ذلك يدخل السرور على قلب أبي الملك، فأواظب على القيام به.. كان أبي ينصحني بأن اختار لي رفقة من جنوده... غير أنني مدفوعا بفورة الشباب وحماسه كنت أرفض ذلك، وأعتبره انتقاصا من رجولتي وشجاعتي..

خلال يوم نحس ابتعدت كثيرا، دون أن أدري بذلك، حتى توغلت في أراضي مملكة مجاورة، محاذية لمملكتنا.. لم أدر بنفسي حتى وجدتني محاصرا بالجنود من كل جانب.. لم أخف، ولم أجبن، لكنني شعرت بالأسف... ومع ذلك وطنت نفسي على أنني قادر على إنقاذ نفسي مما أوقعت نفسي فيه.. سألني الجنود عن موطني، فرفضت الكشف عن هويتي حتى لا يستغل الأعداء ذلك، ويذلون أبي الملك بشروط قاسية ليفتديني منهم. رفضت الإجابة بداية، لكن حينما شددوا علي بأنواع التعذيب، ادعيت أنني صياد تاه في طريقه.. لا أظن أنهم صدقوني. لقد استغربوا أن أكون صيادا، وأنا في مثل هذا

السن.. إنني أبدو يافعا جدا، ومظاهر النعمة تتبدى على ملامحي.

في غفلة منهم، أصبت أحد الحراس بضربات مفاجئة وركضت هاربا... توغلت في الحقول راكضا نحو وجهة لا أعلمها. فقط كنت أتمنى أن أصل إلى أرض أنتمي إليها، لعلي أجد هناك أناسا من قومي، لكن للأسف الشديد، وبعد تعب وجهد وجدت نفسي وجها لوجه مع منحدر سحيق لا يمكن تجاوزه. نكصت على عقبي وقد أخذ مني اليأس مأخذه، لم أخط سوى بعض الخطوات حتى وجدت نفسي محاصرا من جديد، بمجموعة من قناصي العبيد، فلعنت حظي المشؤوم ..تمنيت لحظتها لو أنني لم أتهور و أفر من بين يدي الجنود، الذين كانوا بالتأكيد سيطلبون فدية كبيرة، قد تكون مائة بقرة أو أكثر، ثم أعود إلى أهلي سالما معافى، حين أحاطت بي عصابة القناصين شعرت بأنها النهاية، حاولت المقاومة لكنهم كانوا محترفين يحسنون التعامل مع ضحاياهم.. أحكموا علي قيضتهم.. قيدوني بأغلال محكمة، لا يطمع المرء في الفكاك

منها، فاستسلمت لقدري.. في لحظة ما حاولت أن أخبرهم بأنني ابن الملك، لكنهم لم يصغوا لكلامي، لأنهم يعرفون حق المعرفة انهم حتى وان صدقوني،و قدموني للملك مقابل فدية، فإن عقابهم سيكون محتوما، فإن لم يكن من الملك وجنوده، فبالتأكيد سيحدث من الرعبة، التي تنظر إلى الأسرة المالكة بعين القداسة، و لا تتسامح مع من يمس أفرادها بأي سوء..

سحبوني خلفهم مكبلا بأغلال العار والمهانة لكنني لم أشك ولم أتوجع لقد قررت أن أتحمل مصيري بكثير من الصبر والشجاعة، بلغوا بي إلى مكان يجتمع فيه التجار، وهناك باعوني إلى التاجر، الذي اقتادني رفقة عبيد آخرين إلى القافلة، ومن هناك بدأت رحلة الهوان، قطعنا خلالها طريقا لا يمكن للعقل أن يتخيل أهواله ومشاقه، حتى انتهى بنا المطاف في هذه المملكة. مملكتكم".

سعادتي بـــ"أوسمان" لا تعادلها سعادة.. فقط عكر صوفها اللغة، لم نكن نتواصل بالشكل الكافي.. لم تعد الحركات والإيماءات كافية.. لقد تدفق في نفسي كلينا شلال من

العواطف، اكتسحنا إلى حيث لا رجعة و غمرنا بمياهها الناعمة، فازداد كل منا تعلقا بالآخر ..

كان أوسمان فطنا.. بسرعة أخذ يتلقف بعض الكلمات، يستعملها في كثير من الأحيان بعيدا عن معناها الحقيقي، لكن ذلك أدخل السرور إلى قلبي، فرغم غرابة أوسمان في بعض الأمور إلا أنه كان شخصا ينتمي إلي و أنتمي إليه .. هذه الغرابة تجلت لي في بعض الطقوس، التي كان حريصا على القيام بها. كلما انطلقنا في البراري البعيدة، وتوقفنا لاستجماع قوانا، وإفساح المجال للحصانين كي يسترجعا قوتهما.. كان أوسمان يتنحى بعيدا، يخط على الأرض دائرة، يضع في جنباتها حصى، يجتهد دون كلل في رصفه حتى يشكل دائرة مغلقة بالكامل. تسيجها الحجارة، ثم يدخل وسطها ويشرع في القيام ببعض الحركات، التي لم أفهم معناها.. كان يقوم بها بنوع من الانتشاء وكأنه يمارس الصيد، يتنقل هنا وهناك و يهاجم عدوا مفترضا لا يراه غيره.. أجلس أنا في مكاني مأخوذ بحركاته وعضلاته البارزة والقوية، أتمنى في قرارة نفسي لو أمتلك مثل تلك العضلات،

لكن ذلك لا يشغلني كثيرا، بل أتماهى مع طقوسه التي أضحت تستهويني بشكل غريب.. حين تجاوزنا بشكل نسبي عائق اللغة، أخذت أستفسره عما يقوم به، فكان يشير إلى السماء، فهمت من ذلك أنه يقدم الولاء لأرواح أجداده، الذين استقروا هناك في الأعلى، عكس أجدادي انا القاطنين بالقرب منا في الكهوف، ويلجؤون بسرعة إلينا لنجدتنا كلما احتجنا إلى ذلك.. طلب مني في إحدى المرات أن أشاركه طقوسه، تردت لحظة، لكنني حسمت أمري سريعا، فولجت الدائرة، وطفقت أقلد حركاته، أشعرني ذلك شعورا غريبا.. لقد أحسست أن شيئا ما في داخلي يتحرك بقوة، حتى كدت أفقد وعيي وتوازني، فانسحبت بتحريض منه من الدائرة..

في الدرس المسائي سألت الحكيم عما يقوم به "أوسمان" فأوضح لي بأننا جميعا نشترك في تقديس الآلهة والأرواح، لكن لكل منا طريقته في فعل ذلك، أربكني هذا الأمر، فلقد كنت إلى وقت قريب أعتقد أن طريقتنا في تقديس الأسلاف هي الطريقة المثلى، ودليلي على ذلك أن أرواحهم سرعان ما ترضى

وتستجيب لما نطلبه منها.. كلام الحكيم "يفاو" جعلني أفكر بشكل مختلف، وهكذا لمعت في أعماقي أعماقي فكرة تمسكت بها طول حياتي، ولا أزال متمسكا بها إلى اليوم ويمكن أن أعبر عنها بما يلي:"ما دمنا مختلفين في اللون واللغة وطرق العيش، فلم لا نختلف في طريقة تقديس الآلهة والأسلاف؟" حكم تفكري وسلوكي هذا الاقتناع وجعلته نبراسا لي في التعامل مع كل من يختلف معنا من الأقوام القريبة والبعيدة..

في حضن القصر حينا، وفي أحضان الطبيعة أحيانا كثيرة كانت أجسادنا تنمو تدريجيا، أما عقولنا فكانت تقفز قفزات متوالية في رحاب الحكيم "يفاو" ، الذي عمل جاهدا على تعريفنا بكل ما نحتاجه من معارف، لقد ضرب الحكيم يفاو في الأرض شمالا وجنوبا، شرقا وغربا وتعرف على أقوام وشعوب، زادته معرفته بها حكمة، و قاده شغفه للمعرفة إلى بلاد قصبة، هناك في أقصى شرق القارة، حكى لنا عن شعب مصر وحكامها، الذين بنوا الأهرامات، تلك التي يحار المرء في تعليل

طريقة بنائها حاولت تخيل ذلك، لكنني كلما حكيت للحكيم ما وقر في ذهني عنها ذلك خاطبني قائلا:

"ليس من رأى كمن سمع"

حدثنا بالتفاصيل عن تحنيط المصريين لموتاهم، وكيف يدفنون مع الميت كل ما يملكه في الحياة الدنيا من ذهب فضة، لقد كانوا يعتقدون أن الميت سينبعث يوما حيا، فيجد أملاكه الثمينة بجانبه، أخبرني كذلك عن النهر العظيم الذي يخترق بلاد مصر من جنوبها إلى شمالها والذي كان المصريون يعتقدون أن منبعه في السماء، لكن ما شد انتباهي في كل ما جاء به الحكيم "يفاو" تلك الحكايات عن شعبنا المتفرق في بلاد الدنيا.. حكى لنا بفخر، بأنه أينما حل وارتحل وجد لنا إخوة من الأمازيغ يعيشون في الأرض الواسعة.. منهم من يعيش في أعماق الصحراء مكتفين بشطف العيش، ومنهم من أسسوا ممالك وحضارات، وتربطهم علاقات متينة بباقي الدول الأخرى.. حين يحكي الحكيم كل ذلك، يداعب خيالي حلم.. يصر علي أحيانا، لكنه يمر عابرا في أحايين أخرى، حلم في أن

يتحد هؤلاء الأمازيغ في دولة واحدة، يتوحدون فتقوى شكوكهم، وتكون رادعة لأمم الشمال التي تستقر ما وراء البحر، تلك التي يستهويها الغزو، فتوجه جيوشها نحو بلادنا الضعيفة المتفرق أهلها ودولها وقبائلها، لم أحدث الحكيم "يفاو" بما يخالجني من أفكار وأحلام، لقد احتفظت بها لنفسي، تداعب وجداني في فترات الخلوة التي ظللت حريصا عليها رغم الرفقة الطيبة، التي ظفرت بها مع صديقي "أوسمان"..

الفصل الثالث

لتكتمل الرجولة كان لابد من المغامرة، هكذا تحدثت مع صديقي "أوسمان" الذي أتقن اللغة، وأصبح يتحدث بها بطلاقة كادت تنسيه إلى الأبد لغته الأصلية، تلك التي رضع مفرداتها وعباراتها في بلاده هناك على ضفاف نهر النيجر.. تلك البلاد البعيدة التي لا أكاد أعرف عنها شيئا سوى أنها بعيدة بعدا لا يمكن تقديره، وأن أناسها جميعهم يحملون البشرة السوداء والسمراء، و هم شديدو المرح ومحبون للحياة، و أن ثروتهم البارزة تتمثل في قطعان البقر، التي يمتلكونها، والتي يبدو عددها خرافيا بالنسبة لي أنا الذي أبدا لم تقع عيني على قطيع من هذا القبيل.

بيتنا النية للقيام بهذه المغامرة مهما كان الثمن، الذي يمكننا دفعه من أجل تحقيقها.. كانت جدتي دوما تحدثني عن مملكة النحاس التي تقع في مكان من غرب البلاد، مملكة يسكنها السحرة والعفاريت، لكنها تضم في أحضانها كل كنوز الدنيا، من استطاع التسلل إليها فاز بكل ذلك أو بنصيب كبير

منه، سألت يوما الحكيم "يفاو" عن هذه المدينة، فلم يكن كلامه واضحا ولا مقنعا، بل آثر أن لا نتحدث في موضوعها أبدا، لأن المعلومات عنها قليلة، و ما وصله عنها لا يرقى إلى مستوى المعرفة الدقيقة، بل عبارة عن أخبار متفرقة و إشاعات لا يمكن للمرء التأكد من صحتها..

مساء أحد الأيام قلت لصديقي أوسمان على حين غرة :

– هل أنت مستعد للمغامرة؟

نظر إلي تلك النظرة الأخوية الحانية ثم أجابني:

– لا يمكن أنا أتخلف عن أي مغامرة تقوم بها.. و نفسي أنا كذلك تهفو إلى الجديد.

كنت سأحدث أبي عن مغامرتنا، لكنني توجست من ذلك خيفة، قدرت أنه سيمنعنا من القيام بها بحججه الدامغة، التي يستطيع من خلالها أن يقنع المرء بأن الشمس تشرق من الغرب وتغرب في الشرق، فقط توجهت له ذات مساء حييته أنا و"أوسمان" بتحية تظهر الولاء التام للملك، الذي فطن كعادته إلى أننا نوشك أن نطلب منه شيئا.. لم يكن مستعجلا وكأنه

كان يستمتع بالحالة التي نوجد عليها، حالة تعتبر قريبة عن التوتر والارتباك، وكأننا ارتكبنا لتونا فعلا يستوجب العقاب.. أشار علينا بالجلوس، فاقتعدنا الأرض ممتثلين له، كنت أنتظر أن يأذن لي بالحديث، لكنه لم يفعل.. أبي الملك يتميز بذكاء وقاد، كنت أفطن إلى بعض ألاعيبه التي يدبر بها أمور السياسة، فإذا قصده إنسان لأمر، كان يستبطئه حتى يمل ويصبح قابلا بأقل مما كان يعتزم طلبه في بداية الأمر.. فكرت في داخلي أن حيلة أبي الملك لن تنطلي علي، سألتزم الهدوء وأتزين بالصبر، فإن كان أبي ملكا فإنني بالتأكيد سأكون ملكا في المستقبل، لذا يتعين علي أن أتدرب على الصبر، وعدم التعجل في قضاء مآربي.. فطن أبي الملك إلى لعبتي، لذا فإنه أومأ لأحد وزارئه بأن يأخذ المبادرة بالكلام، و أن يطلب مني أن أبسط حاجتي لدى الملك.

صمتت قليلا.. أظهرت بعض التلعثم والتردد، حتى أشبع غرور أبي الملك، ثم قلت:

– سيدي الملك، إن نفسي ونفس صديقي أوسمان حنتا إلى السفر.

نظر إلي بتمعن ثم نقل بصره نحو صديقي "أوسمان" ثم قال:

– فكرة من هذه؟

خفضت عيني إلى الأرض وأجبته:

– إنها فكرتي التي لاقت هوى في نفس صديقي.

– و إلى أين ستمضيان؟

– نحو الغرب.

تمهل قليلا ثم قلب نظره فينا و في حاشيته ثم قال:

– وماذا في الغرب غير الأساطير، وبحر لا يعرف له أحد قرارا أو حدودا..لقد اعتدنا أن يسافر الناس نحو الشرق، وأنتما تقصدان الغرب ما القصد من ذلك؟

خفضت بصري نحو الأرض و أجبته :

– لا أقصد من ذلك يا أبي سوى أن نعود نفسينا على الجهد والاعتماد على الذات.

لاقت هذه الإجابة استحسانا لدى أبي الملك، فرد قائلا:

– لم نسمع صوت وزير الأمير، ما رأيك يا "أوسمان" في كلام الأمير؟

تحرك "أوسمان" في مكانه ثم قال:

– ما أعرفه سيدي الملك هو أن السفر مدرسة الحياة.

نالت الإجابة المختصرة إعجاب الملك، فالتفت نحو عرافه المتشح دوما بردائه الغريب، يحيط عنقه بأصداف مختلفة الأشكال والألوان، ويحمل في يدي عصا لا تكاد تفارقه حتى وإن كان لا يحتاجها في مشيته، التي ما زالت معتدلة رغم سنه المتقدم ..فتح العراف جرابه، وأخرج خليطا من الأشياء، حركها قيلا في حضن راحتيه.. قرأ عليها بعضا من تعاويذه ، ثم حملق في كل منا، وكأنه يخترقنا بعينيه الحادتين ثم قال:

– سفر مليء بالأهوال، لكنكما تعودا سالمين ومختلفين عما كنتما.

لم يكن أبي يأخذ كلام العراف على محمل الجد، لكنه لعبته التي أدمنها، وأضحت جزءا من طقوسه يوظفها بذكاء في

تدبير حكمه.. وربما تمنحه نوعا من الوقت حتى يفكر فيما سيتخذه من قرارات.

نظر إلينا نظرة متفحصة ثم قال:

– هل يمكن أن يرافقكما بعض الجنود في رحلتكما هاته.

وكأننا اتفقنا على الإجابة مسبقا، قلنا بصوت واحد:

– أبدا.

ثم نظرنا إلى البعض، وكادت قهقهة تنفلت منا.. حاولنا جاهدين كبتها احتراما لحضرة الملك.

قبل أن يأذن لنا أبي الملك بالانصراف، خاطبنا بلهجة أبوية صادقة:

– مرا علي قبل أن ترحلا، لأزودكما ببعض الرسائل، تسمح لكما بعبور الممالك والقبائل التي ستمران منها دون مشاكل.

وعدناه بذلك بكلمة مقتضبة مني، لكننا كنا قد عزمنا على أننا سنعتمد على أنفسنا في كل شيء، دون أن نعلن عن هويتنا الحقيقية، وإلا لما استحق ما سنقوم به اسم "مغامرة"، و تفاديا

لإغضاب الملك قررنا فيما بيننا أن نلبي لأبي رغبته، دون أن يلزمنا ذلك بالتقيد بما أمرنا به.

قضينا ليلة تختلف عن باقي الليالي، لم يستطع النوم أن يقهر جفوننا، فمكثنا ساهرين، نتداول فيما ينتظرنا خلال السفر.. لم نأو إلى فراشينا إلا بعد أن قمنا بزيارة للحكيم" يفاو" الذي كان مقلا معنا في الكلام. لم يزودنا بأي نصائح على عكس ما توقعنا، لكننا أحسسنا بأن الكلام محصور في مكان ما من حنجرته، يأبى أن يتدفق كالعادة، حين يبدأ في الحديث.. هل كان حزينا على فرافنا؟ هل كانت تراوده الوساوس؟ هل لم يكن مباليا بالمرة؟ لم أحسم في أي من الافتراضات التي تناسلت في ذهني، وبالتأكيد نالت نصيبا من تفكير "أوسمان¹" الذي أضحى نسخة مني و أضحيت نسخة مماثلة له. دوما أجد نفسي متلبسا بالتفكير فيما يفكر فيه، ويحدث نفس الشيء له ..لم نشأ أن نجعل من فراقنا مع الحكيم "يفاو" فراقا مأسويا، بل عمدنا باتفاق غير معلن أن ننسحب كالعادة صامتين، بدون كلمات ولا إيماءات، لكن ما

إن اعتدل جسمي في الباب المؤدي إلى خارج الغرفة، حتى شعرت بغصة ما تنتابني.. تزاحمت الكلمات كفئران حاصرتها النيران في مكان ضيق، وترغب في الإفلات بجلدها ، لكن المخرج الضيق لم يسعفها في ذلك، فظلت محصورة هناك.. تجمعت دمعة في عيني كانت على وشك أن تنزلق. قاومت كل ذلك واستمررت في طريقي. في لحظة ما كدت التفت لأشيع معلمي بنظرة أخيرة، لكن يد أوسمان، الذي خمنت فيما بعد أنه كان يعاني مما أعاني منه، امتدت نحوي وسحبتني نحو الخارج.. رفعت هناك عيني نحو السماء التي بدت صافية وعميقة، تزينها مئات العيون اللامعة، بشكل لا إرادي.. رفع أوسمان عيناه كذلك إلى السماء، نظر للحظات في صفحتها المعكرة بغبش الليل ثم قال:

– ستكون هاته السماء رفيقتنا لمدة طويلة.

لا أدري إن كان ما تلفظ به أوسمان عميقا إلى الحد الذي يعبر عن رؤيا أو نبوءة، أو أنه ببساطة عبر عن شيء بديهي يمكن لأي امرئ موشك على سفر أن يتفوه به.. مشكلتي أنني

اعتدت على تفسير الكلام على غير ظاهره، حتى وإن كان كلاما عاديا لا يتحمل أي تأويل بالمعاني البعيدة قد لا تخطر حتى على من تفوه به، بيد أنني في تلك اللحظة بالذات شعرت أن الأرواح أو الآلهة تحدثت بلسان صديقي "أوسمان".. فكرت أن أعقب على كلامه بما يناسبه، لكنني في نهاية المطاف تركت المجال لعبارته أن تظل وحيدة، بلا رفقة تزاحمهما. أو تطفئ من قوتها.. لقد استهواني أن تكون كلمات صديقي "أوسمان" معبرة عن الحالة التي سنجد نفسينا عليها لفترة طويلة من الزمن.. لا أحد يدري كم ستستغرق من وقت قد تقصر وقد تطول.. في تلك الأثناء فكرت بجد في أرواح الأجداد، تلك الساكنة في الكهوف فقررت أن أقدم لها الولاء والطاعة.. أخبرت صديقي بأن رحلتنا قد تتأخر قليلا، وكأنه جزء مني. أو قريني، أو شبيهي. ولم لا يكون أنا نفسي، قال كلمات محت سابقاتها:

– تفكر في الأسلاف.

لم أعقب على كلامه.. أعرف مدى صدقه، ومدى الروابط الوثيقة التي تجمع بين قلبينا.. تصورت لحظتها لو أن مصيري كان مثل مصيره، والتقيته في بلده، وعاملني بمثل ما عملته به، لكنت اتخذته وطنا لي، ما الوطن في نهاية المطاف سوى إحساس بالأمان والحب، اللذين يتيحان للمرء مد جذوره في أعماق الأرض، التي يحيا فوق تربتها، فيمتص نسغها تدريجيا ليصبح مكونا أساسيا لذاته و كيانه .

في تلك الأثناء فكرت في مكافأة صديقي "أوسمان"، لقد قدرت أنه يستحق ذلك، بل فكرت بأنني من خلال مكافأته أكافئ نفسي و احتفي بها.. عرفت دوما بأن تقديم الهدية غالبا ما تسعد مقدمها أكثر مما تدخل الفرح إلى قلب من قدمت له.. أجهدت الذهن للعثور على المكافأة المناسبة، التي يمكن أن تسعده، كلما حضر في الذهن شيء أبعدته بعد حين، قلبت وجهي في صفحة السماء التي تظللنا.. كانت النجوم قد اشتد لمعانها، وأخذت تدريجيا تملأ رحاب السماء بعيونها البراقة.. تتبعتها واحدة تلو الأخرى، حتى استوقفتني واحدة في أقصى

الغرب. بدت لي جميلة وفاتنة لفتت انتباه صديقي "أوسمان" إليها، ثم قلت:

– تلك النجمة هديتي اليك.

ابتهج صديقي بالعطية، فعقب قائلا:

– إنها هدية الآلهة.

واتفقنا منذ ذلك الحين أن نسمي تلك النجمة باسمه، ودأبنا على ذلك قدر ما تعاقب علينا من أيام وسنين ..

قضينا ليلتنا هناك بجانب النهر الكبير، وفي الصباح الباكر أسرجنا حصانينا ومضينا في طريقنا نحو المجهول، تجاوزنا حدود مملكتنا بعد حين، فتوغلنا في مملكة بحدها البحر غربا.. عرفت بين الممالك بأنها مملكة محاربة تحمي الثغور البحرية لبلاد الأمازيغ من هجمات الدول الطامعة في الاستيلاء عليها، وخاصة من دول الشمال ..في طريقنا عرضت علينا الكثير من القبائل استضافتنا لكننا بإصرار من كلينا، كنا نعتذر بلطف، ونواصل المسير في تلك الأرض الشاسعة، التي تخلو من الجبال، بل هي أرض مستوية تتميز بخصوبة أراضيها، في

هذه المملكة كانت أرواح الأسلاف تسكن الدوحات العظام، أشجار ضخمة تنتصب على مشارف عيون تفجرت في أكثر من مكان.

كنت حريصا على التوقف عند تلك الأشجار التي اتخذتها الأرواح مسكنا، فأقدم لها آيات الولاء والعرفان، وأتلو على مقربة منها بعض التراتيل التي حفظتها عن ظهر قلب.. لم أكن أميز بين أسلافي القاطنين للكهوف، وبين هؤلاء الأسلاف الذين اختاروا جدوع الأشجار.. حينما كنت أقوم بذلك يتملكني كثير من الهدوء، وأشعر بالسلام ينشر أجنحته على صفحة القلب والوجدان، فأفوز بما تحن له النفس من اطمئنان.

في احدى وقفاتنا هاته وجدنا عرافة اتخذت من المكان مسكنا لها ..قدمنا لها تحية الاحترام، واقتعدنا الثرى بالقرب من كوخها، أطلت بوجهها، ثم قالت:

– أهوال... أهوال....

أربكنا كلامها وحاولنا الاستفسار، غير أنها رفضت أن تضيف كلمة أخرى عن كلامها، فامتثلنا لرغبته ومضينا في

طريقنا ننقلب الكلمة ذات اليمين وذات الشمال، فلم نظفر بغير شيء من الغم تسلل إلى نفسينا دون أن يحبطنا أو يحد من حماسنا لإختراق مفاوز المجهول ووهاده.

ظللنا الليل بعد ذلك مرات عدة، كلما احتوتنا ظلمته تسلينا بتفقد هديتي لصديقي "أوسمان".. كانت محفوظة هناك في السماء تغير مكانها عبر ساعات الليل الطويل. نتتبعها بشغف و تعاليق لا يعرف المرء كيف تجد طريقها إلى اللسان، تعاليق طريفة و ساخرة في كثير من الأحيان، حين تتألق في أعيننا تلك النجمة تشملنا فرحة ، تدثر قلبينا إلى حين.. من جانبي كنت حريصا كذلك على تفقد هديته. تلك الصدفة التي وعدت نفسي بصيانتها و كأنها جزء مني.. لقد تطلب مني ذلك جهدا إضافيا.. كان علي أن لا أضيعها لأنني اعتبرت فقدانها فالا سيئا. وكأنني بضياعها أفقد صديقي.

قطعنا طريقا طويلا، بدا لنا بلا نهاية، ثم أشرفنا على البحر الكبير، الذي لم يعرف أحد له نهاية، عكس بحر الشمال الذي كلما تطلع إليه شخص، بدت له اليابسة في ضفته الأخرى،

تلك الأرض، التي يسكنها قوم متعطشون للحروب والبناء، الذين حدثني عنهم الحكيم "يفاو" باستفاضة..

لطالما أتعبني التفكير في هذه المفارقات، التي تميز هؤلاء القوم: الحرب والبناء.. القتل والحياة.. الخراب والنماء...من الصعب أن يتوصل المرء إلى تسوية مناسبة بين هذه الثنائيات المتناقضة.

تطلعنا إلى المياه الزرقاء المبهرة، أصابنا ذلك نحن الذين لم نعتد رؤية البحر، بالكثير من الذهول ..انشغلنا بالأفق البعيد حيث يلتقي البحر والسماء، وأصابنا ذلك المشهد بالخرس.. لم نبحث عن تفسير، وإنما سمحنا لنفسينا بارتشاف هذا الجمال المربك، الذي يقدم نفسه لنا بدون تحفظ.

ارتوينا برشفات الجمال المتتالية، ثم قصدنا وجهتنا غير هيابين ولا مترددين ..كنا نعرف أن ما ينتظرنا أقسى من أن تتحمل نفس البشر .. إنها مدينة النحاس، التي يتحدث عنها الجميع دون أن يكون لدى أحد خبرها اليقين..

على حافة الشاطئ مضينا جنوبا، ثم سرعان ما وجدنا أنفسنا نتوغل في جبال بدا لنا وجودها هنا غير مبرر، فزاد ذلك من حيرتنا، وانذهالنا بهذا الجمال الاستثنائي.. نظرت إلى أوسمان، فرأيت الحيرة في عينيه، لكن أبدا لم أمس فيهما ترددا أو خوفا.. انفتح أمامنا فج لم نلحظ وجوده من قبل، فخضنا في طريقه ..أحاطنا الجبل من كل جانب، حتى بدونا ضئيلي الحجم بالمقارنة مع حجم ما يحيط بنا.. فجأة لمعت أمام أعيننا مباني ضخمة، أربكنا انبثاقها المفاجئ هكذا ودون مقدمات... اضطرب الحصانان عند رؤية اللمعان، الذي يعشي البصر، حرنا في مكانيهما، ولم يستطيعا التقدم خطوة نحو الأمام، كان علينا حينذاك أن نتخلصا من الحيوانين، ففعلنا..

ترجلنا، أوثقنا وثاقيهما في مكان شديد الخصب، لكننا ما إن ودعناهما حتى نكصنا متقهقرين نحوهما.. فكرنا أن لا شيء مضمون في مغامرتنا هاته، ومن الصواب أن لا نعيق حركة الحصانين، فمن يدري متى يمكننا العودة مما نحن مقدمان عليه.. فككنا قيديهما، وتركناهما في حل من أي التزام.

تقدمنا نحو الأسوار الشاهقة ذات الوميض المبهر.. وخوفا على أن تصاب أعيننا بالأذى، عمدنا إلى حجبها بأكفنا ونحن نخطو باتجاه الجدران الصفراء.. لم نفكر أبدا في التراجع إلى الخلف، وإنما كنا نتقدم بثبات.. شعرت و كأن قوة خفية تسحبنا نحو المدينة العجيبة.

بعد فترة من المشي لاحظنا أن المدينة تبتعد.. فكلما اقتربنا منها زادت ابتعادا، نظرت إلى "أوسمان" ونظر الي، ثم التفتنا إلى الخلف لنرى العالم من حولنا.. أمام ذهولنا لاحظنا أن جميع المعالم اختفت تماما. فقط هناك طريق يمتد خلفنا الى ما نهاية.. خفق قلبي بشدة.. تيقنت حينذاك أن لا مجال للتراجع، لاحظت نفس الإصرار على ملامح "أوسمان" فاستأنفنا المسير، ثم فجأة أصبح طريقنا هذا محاطا بمياه البحر.. أمر لا يمكن تصديقه حتى في الأحلام.. إننا نخوض في طريق جاف تقودنا نحو المدينة التي لا تكف عن الابتعاد، بينما الماء يحيط بنا من كل جانب، دون أن يغمرنا أو يغمر الطريق، الذي يحتوينا.. المدينة تبتعد ونحن مصران على التقدم

نحوها، في لحظة ما توقف كل شيء، فإذا بنا إزاء وضع معقد، لا يمكن التعاطي معه بسهولة.. حضرت في تلك الأثناء كلمة الأهوال في ذهني قوية، تذكرت كيف نطقت بها العرافة.. لقد ظهر الرعب في عينيها وهي تلقي بها على مسامعنا، حينما استشرتها أنا وصديقي أوسمان. كان لابد أن نتقدم إلى الأمام، ففعلنا والرهبة تعتصر قلبينا، توقفنا أمام السور الضخم، فقررنا دون أن يحدث أحدنا الآخر أن نتسلقه، لنرى ما يوجد خلفه، تطوع صديقي أوسمان ليكون المبادر إلى ذلك.. أعنته على الصعود.. بعد لأي أصبح في أعلى يقف على السور.. فجأة انخرط صديقي في سورة من الضحك الهستيري استغربت ذلك، سألته بصوت مرتفع:

– ماذا هناك يا أوسمان؟

لم يرد علي، وإنما استمر في قهقهته المرتفع، ثم هوى إلى أسفل في الجهة الأخرى من السور، فانقطع أي حس له، في تلك الأثناء شعرت بتحول غريب يطالني، فإذا انخطفت وارتفع إلى أعلى دون جهد أبذله، حلقت فوق السور.. للحظات

حانت مني نظرة إلى الخلف، فإذا بالطريق الذي عبرته رفقة صديقي قبل قليل قد اختفى، وقبل أن أفكر في الأمر، وجدت نفسي أفقد القدرة على التحليق وإذا بي أهوى إلى أسفل، فاستقر قرب صديقي، الذي لم يستعد بعد إحساسه بالمكان من حوله.. هرعت نحوه و حركته بقوة، فإذا به يستجيب لي.

ببطء فتح عينيه على مهل، حملق في وجهي وكأنه لا يعرفني، فرأيت الرعب في عينيه كان خائفا، و جسده يرتعد.. سألته:

– ماذا يحدث؟ و كأنك ترى ما لا أراه.

حاول الإجابة غير أن الصوت خانه، فأشار لي بسبابته نحو مكان ما، نظرت إلى هناك، فلم أر شيئا يستحق الرعب الذي يظهر على وجهه ، وكأن حجابا ما يمنعني من النظر، فيما كان أوسمان هلعا، يكاد بصره ينخطف من كثرة البحلقة نحو الشيء الذي يراه ولا أراه.. مرتعبا انتفض صديقي أوسمان واقفا.. أشار إلي بأن اتبعه ففعلت.. كان حاله يبعث على العجب.. إنه

يمضي في طريقه، وكأنه يتبع أوامر كائن لا أستطيع أنا رؤيته أوقفته بقوة ثم خاطبته قائلا:

– ماذا دهاك؟

انحلت عقدة لسانه ،فقال:

– ألا ترى ما أراه حقا؟

رددت عليه:

– إنني أرى فقط مباني ومقصورا نحاسية خاوية على عروشها وكأنها مدينة أشباح.

استغرب صديقي كلامي فرك عينيه جدا ثم قال:

– وهذه الكائنات الممسوخة. ألا تراها؟

– أي كائنات يا صديقي؟

– إن أحدها يأمرنا بالتقدم إلى الأمام، يبدو أننا في موقف لا نحسد عليه.

– إنك تتوهم.. استيقظ يا أوسمان.

نظرت إلى صديقي من جديد فبدا الهلع على وجهه كان خائفا على غير عادته، فقدرت ما يشعر به بينما كان نوع من

السكينة يربت بيديه الغضتين على نفسي.. تطلعت فيما حولي فإذا بي أشعر بأنني في أجمل مكان يمكن أن يظفر به البصر.. مبان صفراء وأشجار صفراء تحط عليها طيور بألوان متعددة، وتماثيل حيوانات من كل الأنواع، لكن الجميع فاقد للحركة.. نزلنا سلما يؤدي إلى سرداب عميق.. كان أوسمان يلتفت يمينا وشمالا، ويقوم بحركات غريبة وكأنه يحمي نفسه من مناوشات أوصفعات تنهال عليه تباعا.. في لحظة ما أخفى رأسه بين يديه وبدأ في الصراخ ..حاولت تهدئته لكنني عبثا فعلت ذلك.. شككت في أن صديقي أصيب بمس من الجنون، أو أن صدمة السقوط أصابته بخلل ما في رأسه، لكنني لم اتوقف عند ذلك كثيرا.. إذ سرعان ما انفتح أمامنا باب نحاسي لم ننتبه إلى وجوده من قبل، ولجناه دون تردد، فإذا بنا في قاعة فسيحة ..طلب مني أوسمان أن ألزم الصمت بناء على أوامر تلقاه من الكائن الغريب ،الذي أصبح يأتمر بأمره، أشار لي أوسمان إلى مكان لكي أجلس فيه، فأطعت أوامره، كان صديقي يلتفت يمنيا وشمالا، وكأنه يتتبع مشهدا ضاجا بالحركة، فيما كنت أنا

استغرب هذا الصمت الغريب، الذي لم أحظ في حياتي بمثله.. في لحظة ما التفت نحوي أوسمان وأخبرني بأنهم يطلبون مني أن أتقدم نحو مكان محدد، أجبته قائلا:

– لقد جننت يا أوسمان. ماذا تقول؟ لا أحد هنا.

بحدة رد علي أوسمان:

– دع جرابك، وتقدم.. سيقتلوننا إن لم تفعل.

ما إن سلمته جرابي، حتى تغير كل شيء أمامي، لقد انكشف الحجاب عن عيني وأخذت أرى ما كان صديقي يصفه لي.. كائنات شائهة ممسوخة و نزقة، كثيرة الحركة، في رؤوسها قرون صغيرة، ولها عين واحدة تتوسط جبينها.. ارتعبت مما رأيت، فالتفتت مذعورا نحو أوسمان ثم قلت له:

– ما هذا؟

وجدت أوسمان في حال مختلف تام، لقد أصبح هادئا مطمئنا ،فيما كنت أنا أتلوى من الرعب، نظر إلي وأجابني:

– يبدو أنه قد حان دورك يا صديقي لترتعب.

رددت عليه متشككا:

– وأنت ألا ترى شيئا؟

راسما على ملامحه علامات الاستغراب رد علي:

– أبدا إن المكان فارغ تماما... لقد اختفت كل المخلوقات التي أرعبتني سابقا.

راسما على ملامحه علامات الاستغراب رد علي:

– أبدا إن المكان فارغ تماما... لقد اختفت كل المخلوقات التي أرعبتني سابقا.

مأخوذا كنت بما أراه أمامي تقدمت وجلا إلى حيث أشار المخلوق المسخ ،الذي يوجه لي أوامره بلهجة قاسية، فاخترقتني شحنة من الرعب، سرعان ما تحولت إلى طاقة مختلفة.. لقد منحتني القوة لمواجهة مصيري.. كنت على يقين أن أرواح أسلافي ستحميننني من كل شر.. لا أدري كيف ترسخ في داخلي أن ما يحدث لي في لحظتي الآنية جزء مما سيحدث لي في المستقبل، فمدني ذلك بالكثير من الثقة في النفس.. اعتدلت في كرسي مستجيبا للأوامر ثم شعرت بعد ذلك بأن الجميع أهملني.. منحي ذلك هدنة، استغللتها في

التفكير فيما يقع أو ما هيمن على تفكيري.. هذا التناوب في الرعب بيني وبين صديقي أوسمان هل هو إشارة من نوع ما؟ هل هو رسالة؟ أم أن الأمر مجرد صدفة لعينة لماذا لا نرى نفس الشيء في الآن ذاته.. لمعت في ذهني ذكرى قريبة.. ذكرى الهدية التي تلقيتها من صديقي أوسمان.. إنها توجد في الجراب. هل تكون الصدفة تميمة من نوع ما؟ لم أحسم في الأمر، لكنني غلبت هذا الاحتمال في ذهني. حانت مني التفاتة نحو أوسمان، فرأيته هادئا، يتملى بانتشاء في ما يحيط به من أثاث وأوان وتماثيل.. لقد كنت على بينة مما يرتشفه بصره، بينما كنت أنا أواجه قدري وحيدا دون معين.

توجه مخلوقان بشعان نحوي، طفقا يحومان من حولي، وهما يقومان بحركات منفرة، ثم ما لبث أن تقدم نحوي مخلوق ثالث أكثر بشاعة. نظرت إليه فارتجفت فرائصي" حملق في خلقتي بعينه الوحيدة ،التي يتطاير منها بريق ناري، ثم قال.

– ابن الملك موحد الأمازيغ.

لم أفقه شيئا ما تفوه به المخلوق البشع، غير صفتي كابن الملك، التي أوحت لي بأن هذه الكائنات تعرف عني الشيء الكثير، وربما كانت تنتظر حلولي بينها، وليس مستبعدا أن تكون قد سعت إلى ذلك بشكل من الأشكال، لكن ما الذي يدفعها للقيام بهذا الأمر.. في لحظات بعينها تساءلت إن كنت أحلم، فما أراه هنا يتجاوز حدود المنطق والواقع.. لم يستغرقني التفكير في ذلك كثيرا، خفضت رأسي حتى لا أنظر أكثر إلى المخلوق البشع، غير أن عقلي كان يشتغل بسرعة، حضرت إلى ذهني فكرة، قدرت أنها ستخلصني من كل هذا الوضع الاستثنائي، الذي وجدت نفسي ضحية له.· لم ينطق المخلوق البشع أي كلمة، فقط انتفض وطار في الهواء ومن هناك في ارتفاعه المربك خاطبني قائلا.

– غدا تكون محاكمتك.

فكرت فيما قاله المخلوق، فاستغلق علي معناه، لم أحاكم؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟ غير أنني في تلك الفترة أحسست بأنني حر في حركتي.. لم ألمس ذلك الثقل الذي كان يكبلني

قبل لحظات.. غادرت مكاني وأنا محاط بالكائنين الشائهين، تقدمت حيث يجلس أوسمان مسلوب الذهن بتأثير من الجمال الذي يحيط به.. جلست بجانبه، ثم قلت له.

– أظن أن السر في الجراب.

رد علي أوسمان متسائلا:

– ماذا تقصد؟..أي سر؟

نظرت إليه بتمعن ثم أردفت قائلا:

– ما إن سلمتك الجراب حتى تغير حالي وحالك.

مستغربا نظر إلي ثم سألني قائلا:

– ماذا تعني؟

عازما على إشراكه في ما أفكر فيه رددت عليه:

– أظن أن في الجراب تميمة ما تقي حاملها من شر هذه الشوائه.

– أي تميمة؟

– ربما الصدفة.

مستغربا سألني:

– أي صدفة؟

– هل نسيت.. تلك الصدفة، التي أهديتنيها في النهر.

فكر للحظات ثم قال:

– ربما.. دعنا نجرب.

تشبثنا كلانا بالجراب، فاختفى العالم الذي كان يقدم لنا نفسه قويا ومرعبا ، فقط أحاطت بصرنا الأواني الصفراء و باقي الأثاث.. تبادلنا النظرات، فتحنا الجراب معا، أمسكنا بالصدفة جميلة الألوان، فإذا بنا نحلق في الهواء، ونطير خارج البناية استمررنا في الطيران فإذا بنا نعلو مدينة النحاس ببنائها الفاخر اللامع، رأينا الأقواس والقباب والتماثيل والأشجار النحاسية، ثم سرعان ما وجدنا أنفسنا نبتعد عنها، ونخوض في أجواء مختلفة، تحتنا البحر يتمدد بصفحته. الزرقاء الحانية، والمدينة تبدو من بعيد كجزيرة صفراء مبهرة للنظر. كانت وجهتنا اليابسة، نراها من بعيد بلونها المختلف، الذي أبهجنا بحضوره المدغدغ لعواطفنا، التي لا تكاد تستقر على حال.

الفصل الرابع

تجاوزنا البحر، وتوغلنا في اليابسة .كانت تضاريس الأرض تختلف من مكان إلى أخ، مرتفعات ومنخفضات، وأرض منسبة.. فجأة لاح لنا الجوادان، وهما يبدوان من بعيد صغيري الحجم، لا يكاد المرء يجزم بهويتهما، توجهنا نحوهما، ونحن على حالنا.. كل منا يمسك الصدفة من جانب، والفرح بالنجاة الحصانين يتربع في فؤادينا.

أسرجنا الحصانين وانطلقنا في طريق العودة بعد أن ارتوت نفسانا مما عاشتاه في الفترة الأخيرة. أصبح حديثنا قليلا، وكأننا نخشى من أن الكلام عما حدث سيجعلنا نعيش أهواله من جديد. مررنا بنفس الطريق تقريبا. لقد أضحت لنا دارية بالكثير من الممرات والمسالك. لم يعكر صفو عودتنا شيء. كنت خلال طريق العودة أفكر في كل ما حدث. أشعر بأن تغييرا ما قد طالني. لم أعد كما كنت سابقا.. أحس وكأنني كبرت سنوات عدة. أصبحت أميل إلى الصمت.. حين استرقت النظر إلى

أوسمان شعرت بأنه يصارع في نفسه هواجس عدة.. لا شك أن نفس الأفكار التي تهيمن على تفكيري تشغل باله.

تجاوزنا حدود المملكة الغربية، ودخلنا أراضي مملكتنا.. فوجئنا بأعلام سوداء ترتفع على الكثير من البنايات. انقبض قلبي لذلك، وعرفت أن شرا ما قد داهم القصر في غيابنا. الأعلام السوداء تدل على الحداد.. من يا ترى يكون قد مات من أفراد الأسرة المالكة. لم أترك نفسي نهبا للهواجس، فقط حرضت حصاني أودجاك على الانطلاق سريعا نحو القصر.. كذلك فعل أوسمان مع حصانه تليلي.

لم يخفف علي بأي كلمة بل كان يسابقني في الركض، وكأن ما يشغله أكثر مما يشغلني.

بلغنا ساحة القصر فكان الوجوم ملقيا بظلاله القاتمة على الأجواء.. تقدم حاجب الملك مني، ثم قال بكلمة أرادها قوية ومعبرة:

– لقد جاء دورك لقيادة المملكة.. أبوك اختاره الأسلاف ليحل بينهم.

مصعوقا ترجلت عن الحصان، وركضت في اتجاه مدخل القصر.. لحق بي أوسمان، وجدت الحرس عند الباب على أهبة الاستعداد .فسحوا لي المجال لكي أعبر نحو الداخل حين.. عزم أوسمان على الدخول أوقفوه التفتت إلى الخلف، وبإشارة من يدي أمرتهم أن يسمحوا له بالدخول.. أوسمان أصبح فردا من العائلة، ليس غريبا عنا، لذا فحضوره في هذا الوقت العصيب مرغوبا فيه.. ولجت القصر، فاستقبلتني" توزين " مولولة وهي تقول:

مات.. أبي يا غيلاس.. مات الملك..

من ذراعيها أمسكتها ثم سألتها :

–كيف حدث ذلك؟ فقد كان قويا معافى.

نشجت باكية ثم قالت:

– لقد هوى من أعلى فرسه خلال رحلة صيد، وأصيب إصابة بليغة.

شعرت بالأرض تنسحب من تحت قدمي.. كدت أفقد الوعي من شدة الحزن، لكنني في أخر لحظة تماسكت تراجعت نحو الجدار.. استندت عليه، ثم تهاويت ببطء، قعيت على الأرض ممسكا رأسي بين راحتي .. أحسست بالدموع تملأ مقلتي. كدت أبكي، لكنني تجنبت ذلك.. بصعوبة رفعت رأسي ببطء، فرأيت أوسمان في الجهة الأخرى يستند جالسا على الجدار المقابل.. كان حزينا بحق ويبكي بحرقة، تمالكت نفسي.. قمت من مكاني توجهت نحوه، أخذت من ذراعية، أوقفته، عانقته، وبكينا معا.. بكينا أبا حنونا، وملكنا عطوفا استمررنا في ذلك بعض الوقت ثم خرجنا من القصر. كان الظلام قد حل، وانتشرت النجوم في صفحة السماء. رفعت رأسي نحوها، قلبت بصري فيها وحين عثرت على بغيتي أشرت إليها، ثم قلت مخاطبا أوسمان:

– ها هي نجمتك. ترى فيم تفيدنا في المستقبل؟

داعبت شفتي أوسمان ابتسامة حيية، وفي يقيني أنه يسترجع الآن ما استطاعت فعله صدفته العجيبة، التي أنقذتني من مصير لا أحد يعرف مدى صعوبته.

صباحا كان الجميع على أهبة الاستعداد لدفن الملك.. الكل حزين بفقدان عاهل المملكة، الذي حقق الاستقرار والأمن في ربوع المملكة، وجنب الشعب الخوف من اندلاع الحروب. كان ذكاؤه وقادا، أهله لتحقيق أهدافه دون أن يسيل قطرة دم واحدة. عقد صلحا مع الممالك المحاذية، فأمن الحدود، وجعل من المناطق المتنازع عليه أراضي مشتركة، يجني ثمارها ويستغلها الجميع.

من كل جهات المملكة جاء الكهنة والمنجمون، فأقاموا قداسا دينيا ضخما، أثنوا فيه على الملك الصالح، ودعوا له بإقامة هنيئة لدى الأسلاف في مستقرهم.. ذبحت الذبائح، وقدم الصدقات للفقراء، ثم حمل النعش، وتقدمنا به في طريقه الأخير. كنت في المقدمة، وبجانبي أوسمان، الذي لم يتوقف

نشيجه، لقد أحب الملك بحق.. حين أصبح النعش على الأكتاف. قمنا بجولة قصيرة في الساحة، ثم انتقلنا به إلى مقبرة، حيث أودعناه مثواه الأخير.. استمر الحزن لأيام، ثم أخذ يتوارى شيئا فشيئا حتى أصبح مجرد ذكرى استقرت في القلوب والأذهان، تطفر معلنة عن نفسها في فترات متباعدة، فتذكر الجميع بأن الملك كان هنا يملأ الدنيا بحضوره القوي .

تغيرت حياتي كليا.. بين ليلى وضحاها وجدت نفسي ملكا. أتحمل مسؤولية مملكتنا الصغيرة. نادى الناس بحياتي في الساحات العامة، وتردد صدى كلماتهم في البراري والجبال، وتسللت إلى الكهوف.. كهوف الأسلاف، فباركت أرواحهم سعيي ومسعاي، كنت لا أزال شابا في عيون الكثيرين، لكنني في أعماق أعماقي أشعر بالنضج والاكتمال.. تكفيني نظرة واحدة إلى صديقي "أوسمان" لأتذكر مغامرتنا الاستثنائية، التي جعلت كلا منا يكبر قبل الأوان.

ما إن استقربي المقام على عرش المملكة حتى قمت ببعض الإجراءات الضرورية. أصبح "أوسمان" وزيري، فحققت بذلك

نبوءة أبي الملك. ثم قربت مني الحكيم يفاو الذي أخبرته أنني أبدا لن أعفيه من درسنا الليلي.. ابتهج الحكيم بذلك، لكنه بحكمته المستنيرة ومعرفته بخبايا الأمور قال بعض صمت بليغ:

– أيها الملك. إنك لن تحتاج إلى دروسي بعد اليوم، فالحياة الجديدة كفيلة بتعليمك الشيء الكثير. ثق بأن ما سأعلمك إياه وأنت ملك قد يكون عائقا لك في تدبير شؤون مملكته:

سألته مستوضحا قوله:

– ماذا تعني أيها الحكيم؟

فكر للحظات وقال:

– ما علمتك إياه وما يمكن أن أعلمك مستقبلا هي أفكار نظرية تميل نحو المبادئ العامة التي تهذب النفس وتجعلها تميل نحو الحق أينما كان. أما ما أنت مقدم عليه فلا يصلح أمره بذلك وإنما يستقيم بالدهاء والحيلة والمناورة، وتغليب المصالح عما سواه.

تدبرت ما نطق به الحكيم، ثم أجبته:

– سأسعى بهديك وهدي الأسلاف أن أغلب كفه الحق، ما لم يكن في ذلك إفساد للنظام.

دخلت علي في تلك الأثناء أختي "توزين" وقد غدت أميرة فاتنة تسلب الألباب. استرقت نظرة نحو صديقي "أوسمان" فرأيت بصره قد تعلق بها، فلم يستطيع إشاحته عنها لحظة.. حيتني أختي بما يليق بالملك، ثم قالت:

– أستأذنك أيها الملك في استقبال ابنة الملك "شيشنق" لقد أرسلت رسالة إلي تتمنى فيها زيارتنا.

رددت عليها باحتفاء:

– نعم.. ما المانع من ذلك؟ لقد سمعت أنها فائقة الجمال، ووقادة الذكاء، ربما يكون لنا نصيب فيها.

ضحك الجميع حينما سمع كلماتي.. بحثت عن الابتسامة في وجه أوسمان، فوجدته واجما، منشغلا بأمر آخر غير الذي أفكر فيه.. تلك اللحظة استفززته بكلمات متعمدة:

– أين شردت يا وزيري؟ يبدو أنك عاشق ولهان.

ما إن أطلقت كلماتي حتى استرقت نظرة نحو وجه "توزين" فرأيته قد تخضب بحمرة الخجل، وحاولت في تلك اللحظة أن تفر من وجهي ومن كل من تلقى سمعه كلماتي.

الحقيقة أسعدني ذلك، لأنني كنت قد وطدت العزم على أن أيسر زواجهما، حتى أستطيع الاحتفاظ بصديقي "أوسمان" بجانبي إلى أبد الآبدين.

قبل أن تغادر "توزين" مجلسنا وتختفي عن الأنظار ناديتها بصوتي المرتفع قائلا:

– "توزين" "توزين"... لم تخبريني باسم صديقتك ابنة الملك "شيشنق".

دون أن تلتفت إلى قالت مجيبة:

– توسمان أيها الملك.. توسمان.

أعجبني الاسم الرقيق، إنه ناعم وله عبير أخاذ، كمسماه تماما.

بعد أيام جاءتني إثارة بقدوم موكب الأمير توسمان فأعددنا العدة لاستقبالها. زينا القصر بما يليق بمكانة الضيفة. وجندنا

الكثير من الفتيات للاهتمام بها. لقد كنت شخصيا أعول على هذه الزيارة، فستحقق لي الكثير مما أطمح إليه. فأن أفوز بالزواج من ابن الملك شيشنق، فذلك يعني أن مملكتينا ستتحدان، ويمكنهما بذلك مواجهة أعدائهما المشتركين.. لقد تواترت الأخبار في المدة الأخيرة عن وصول جحافل الرومان إلى بلاد الأمازيغ واقتحموها من الثغور الشمالية، وأقاموا غير بعيد عن الشط معسكرات لهم، يستعدون فيها للانطلاق بجيوشهم، قصد السيطرة على باقي البلاد. أرسلت رسالة إلى الملك شيشنق أرحب فيها بضيافتنا الكريمة واعدا إياه بالاهتمام بها، وجعلها تقضي وقتا ممتعا في ضيافة أختنا المصونة توزين.

بعد أيام توصلت برد من الملك شيشنق، مفعما بروح الإخاء والامتنان، محاولا من خلاله أن يعرفني ببعض سجايا ابنته الكريمة توسمان، مركزا على رغبتها العميقة في إقامة علاقة طيبة مع كل قبائل وممالك الأمازيغ، وبأنها سمعت الكثير عن مملكتي، وعن أختي توزين الشغوفة بالمعرفة، والحريصة على تكريم الأسلاف بنفسها من خلال الإشراف على تقديم

الأضاحي لها وتمجيدها، وتمنى الملك في آخر رسالته أن تكون زيارته كريمته لنا فاتحة خير لمملكتينا وباقي بلاد الأمازيغ.

حل اليوم الموعود، فأخذت عددا من الجنود وكبار القوم للاستقبال الأميرة توسمان على الحدود.. فيما أعددنا نحن العدة في القصر ليكون دخولها إلينا مهيبا وكبيرا.. نصبنا الرايات في كل مكان، مزينات بشعار مملكتنا ومملكة الضيفة الكريمة، فيما استعد الطباخون لإعداد وليمة كبرى يحضرها الأعيان وكبار رجالات المملكة مع الحرص أن تقدم كمية من الطعام إلى الفقراء. أردناه يوما مميزا وكأنه يوم العيد سواء بسواء.

كنت أطل صحبة أوسمان من شرفة القصر نتتبع الاستعدادات بعين راضية مطمئنة، حين لاح لنا فارس يتجه نحو القصر بسرعة فائقة، كان الغبار يحيط بحصانة من كل جانب، توقعنا أنه سينقل لنا خبر وصول الأميرة توسمان، حتى نعد العدة لتخرج الأميرة توزين لاستقبالها على مشارف المدينة.. توقف

الفارس في ساحة القصر، ترجل عن حصانه، وركض نحو البوابة.. أوقفه الحراس. سألوه بعض الأسئلة، ثم سمحوا له بالمرور.. توجه نحو الحاجب فانخرطا في حديث بدا مهما ومقتضبا، ثم سرعان ما توجها نحونا وعلامات الحزن والغضب تعلو وجهيهما.

أدى الحاجب والفارس التحية، ثم نطق الحارس بالكلمات التي لم نتوقعها أبدا:

– لقد تم اختطاف الأميرة "توسمان".

مادت الأرض بي. لم أصدق ما أسمعه، ألقيت عليه السؤال لأتأكد من كلامه:

– ماذا تقول ؟

تلعثم الرجل ثم رد:

– نعم سيدي الملك. لقد تم اختطاف الأميرة.

بدت الكلمات هذه المرة أكثر وضوحا وقوة. كانت بغيضة لكن مقنعة، انخطفت الدماء من وجهي، واكتسحتني غلة مفاجئة.. تماسكت قليلا، ثم سألته:

– من تجرأ على فعل ذلك؟

– رد علي بكثير من الاقتناع:

– جنود الرومان يا سيدي.

تملكتني الحيرة. أحسست بمسؤولية كبرى تجاه ما حدث، أن تخطف الأميرة توسمان وهي في طريقها إلى القصر وربما في أراضي مملكتنا، فهذا ما يحملني المسؤولية كاملة. أسقط في يدي. لكنني لن أسمح للغضب أن يفسد عقلي. صرفت الفارس وطلبت من الحاجب أن يدعو أهم رجال الدولة للاجتماع. نظرت إلى "أوسمان" فكان في حالة تحفز وكأنه يستعد للخروج الآن قصد استرجاع الأميرة إن تلقى الأمير بذلك.. أشرت له بحركة متواطئة وكأنني أخبره بان لا يتعجل، وبأننا حتما سنستردها مهما كان الثمن.

الفصل الخامس

كانت الأخبار قد تواترت سابقا عن دخول الرومان إلى بلاد الأمازيغ.. جاؤوا بسفنهم، واقتحموا الثغور الشمالية، عسكروا هناك، ثم طفقوا ينشئون بعض البنايات، على شاكلة العمران في بلدانهم. لقد جاؤوا إلى هنا لكي يبقوا، وربما يفكرون في الاستيلاء على باقي البلاد.. فهم لن يكتفوا بالثغور. الجميع يعرف أنهم محاربون أشداء، تستهويهم لعبة الحرب، وجل أساطيرهم تتحدث عن هذه الحروب، حتى آلهتهم لا تشبع من الدماء، بل هي من يحرضهم على المزيد من سفكها، كان الحكيم يفاو قد حدثني عن تاريخهم الطويل وعن حروبهم التي لا تنتهي. دوما كان الحكيم يلقي باستفهاماته العميقة أمامي، وهو يحدثني عن حضارة هؤلاء القوم، التي استقرت شمال البحر المتوسط، فبالقدر الذي تبدو فيه حكمتهم عميقة وعقولهم وازنة، تحتفي بالأفكار العميقة والدقيقة، فإنهم بالقدر ذاته يعبرون عن كثير من الغباء في خوض حروب فيما بينهم لا تنتهي في غالب الأحيان إلا بفناء أكثر رجالهم قوة، حدثني

الحكيم عن حرب طروادة التي قامت من أجل امرأة، فهلك في تلك الحرب أشد الرجال بأسا وأكثرهم قوة. كما أخبرني أن لهم الكثير من آلهة الحروب التي لا ترضى بغير إشعال فتيل الحرب في كل وقت و آن، ذكر من هذه الآلة، مارس، ومافورس، ومارمور، إنها شعوب تعاني من جنون العظمة. لا ترى لنفسها قوة إلا في إخضاع باقي الشعوب وإذلالها.، وحتى إن لم تظفر بعدو لإبراز قوتها انقلبت على نفسها، وانتقمت منها. لقد حكى لي الحكيم يفاو قصة ملكهم نيرون، الذي أحرق في إحدى نوبات جنونه مدينة روما.

في نفسي تساءلت: هل من الممكن أن يكون سر قوتهم في هذا النهج الذي يسلكونه، فهم دائمو التدمير والبناء. يبنون ويدمرون، ويدمرون ويبنون، إلى ما لا نهاية. هل هذا الأمر يجعلهم دائما متحفزين متقدي الحس، مستعدين لكل طارئ فلا يستكينون إلى الدعة والاطمئنان.

اجتمع رجال الدولة في وقت قصير. دخلت الغرفة التي جمعتهم مصحوبا بوزيري "أوسمان".. وقف الجميع احتراما لنا. طلبت منهم الجلوس. ثم بدأت الحديث، قائلا:

– لقد حدث أمر جلل. اختطف جنود الرومان الأميرة توسمان ابنة الملك "شيشنق"، وهي في أراضي مملكتنا متجهة في طريقها إلى قصرنا لزيارة أختنا توزين.

نظرت إلى وجوه كبار الدولة. فبدأ الاهتمام على وجوههم، بل تسرب بعض الغضب الذي بدا صادقا على ملامحهم. في الحقيقة كنت أنتظر من أحدهم أن يتدخل ويقترح شيئا محددا، تطلعت إلى العيون، فبدت لي حائرة. الجميع يفكر، لكن لا أحد بادر إلى الكلام.. كنت في وضع صعب، لأنني لا أريد التسرع باتخاذ أي قرار قد أندم عليه فيما بعد . تململت في مكاني.. التقط صديقي أوسمان الإشارة، فبادر إلى مخاطبة رجال الدولة قائلا:

– ماذا تقترحون أيها السادة. الملك يصغي إليكم.

تدريجيا انحلت عقدة ألسنتهم، وتدفق سيل الكلام، حتى كادت تغرقنا لججه.

قال أحدهم:

– فلننظم جيشا قويا، ونهاجم.

اقترح الثاني:

– بل نكتفي بعدد قليل من الجنود الأقوياء، نرسلهم في مهمة محددة، تركز على استرجاع الأميرة.

أثنى أوسمان على اقتراحاتهم ، ثم مال نحوي و قال:

– أستأذنك في السماح لهم بالانصراف.

غادر رجل الدولة المكان، و مكثت وجا لوجه مع وزيري أوسمان، الذي ما إن اطمأن إلى ابتعاد الجميع، حتى قال لي:

– اسمع أيها الملك. ما حدث يمكن أن نستفيد منه بأكثر مما نتوقع.

– أفصح.

– لقد منحنا الرومان سببا للتوحد.

– بدا لي ما نطق به أوسمان جديرا بالاهتمام ، فطلبت منه المزيد قائلا :

– تابع.. كلي آذان صائغة.

– اقترح أن توجه رسائل إلى جميع ملوك الأمازيغ و نخوض بعدها حربا شاملة ضد الغزاة.

لا أدري كيف خطر على ذهني في تلك اللحظة بالذات كلمات المخلوق المسخ في مدينة النحاس."موحد الأمازيغ،" أبعدت عني ذلك الخاطر، وأصغيت السمع إلى أوسمان ، الذي تابع:

– إنها فرصة لا تعوض فلنتصرف بحكمة وبطموح أكبر.

فكرت في كلامه ثم رددت:

لكن الوقت ليس في صالحنا، نحتاج أولا إلى استرجاع الأميرة.

شرد ذهنه للحظات، ثم قلت له:

– الأميرة مكسب ثمين في أيديهم ولن يفرطوا فيه.. أرسل رسالة إليهم تنبههم إلى أن الأميرة كانت في ضيافتك ويجب إطلاق سراحها.

– ألن تعقد الرسالة الأمر؟ عقبت قائلا.

– نعم ستعقده، لكنهم سيعرفون أهميتها بالنسبة لمملكتين من ممالك الأمازيغ.. قال أوسمان.

– أحسنت.. سأفعل. رددت عليه حاسما الأمر.

رفقة صديقي أوسمان" دبجنا الرسائل، وبعثنا بها إلى ملوك الأمازيغ، ونحن نعد العدة للحرب القادمة، وتباعا تلقينا الردود، التي كانت في مجملها مرحبة بالتعاون، لأن الخطر داهم ولا أحد في منجى منه.

الفصل السادس

قمت بزيارة سرية إلى الملك" شيشنق" بعدما خلفت ورائي وزيري أوسمان مسؤولا عن تدابير شؤون المملكة والقصر.. كنت قد أرسلت رسالة إلى الملك أخبره فيها بقدومي إليه. فاستقبلني في الوقت المحدد دون بهرجة أو مراسيم، فقط تسللت صحبته إلى غرفة بعيدة عن أعين المتلصصين، بداية استغرب الملك من حداثة سني، ورأيت في عينيه نظرة استصغار لي. لكن ما إن دار بيننا الحديث حتى اختلفت نظرته لي جذريا، وأضحى يعاملني معاملة الند للند، بل أبدى الكثير من الثقة في شخصي، الملك "شيشنق" يقارب والدي المتوفى في السن، وتبدو على ملامحه سيماء الصرامة والقوة، وكأنه ولد لكي يكون ملكا.. حدثني عن الحادث المؤسف، ولمست فيه قوة شكيمة وقدرة على تحمل المصائب.. كان الرجل هادئا يفكر بتأن في كل كلمة ينطق بها أو يسمعها مني.. أخبرته بما عزمت على القيام به فأثنى عليه بعد أن ارتفع حرج اللقاء الأول، خاطبته قائلا:

– هل تمنحني أيها الملك شرف خطبة ابنتكم توسمان؟

مستغربا نظر الملك "شيشق" إلي ، ثم قال:

– حينما تعود سالمة إلينا نتحدث في ذلك.

رددت عليه قائلا:

– ستعود أيها الملك، ستعود أعدك بذلك.

لم أطل الكلام في الموضوع.. فقط كنت معنيا بتمرير رسالة للملك، مفادها أن مصير ابنته "توسمان" يعنيني كما يعنيه تماما، وربما أكثر، لقد بدا تأثير كلامي على الملك "شيشنق" فأخذ يعاملني بشكل مختلف، لاحظت ذلك من طريقة كلامه، ومن لزومه لي لوقت طويل، حتى أنه كاد لا يبعدني عن عينيه لحظة.

اتفقنا على إعداد العدة للحرب، لكن لا بد قبل ذلك من إتاحة الفرصة للدبلوماسية، كما ألح على ذلك.. قررنا أن نوفد وفدا إلى الرومان نطلب منهم أن يفرجوا على الأميرة، مقابل أي فدية ندفعها إليهم .. طلبت من الملك بأن تكون قيادة الجيش لي، فلم بمانع في ذلك، بل حبذ الفكرة، لقد رأى في شخصي

– كما قال ذلك صراحة – حماس الشباب وحكمة الشيوخ، اتفقنا كذلك على تشكيل الوفد الذي يقوم بهمة التفاوض مع الرومان.. رشحت بعض الرجال من مملكتي، واقترح هو الآخر رجالا من مملكته، واتفقنا على الموعد المحدد للتوجه نحو الأراضي التي يستعمرها الرومان، كتبنا بأمر الوفد رسالة بعثناها إليهم، ثم استغرقنا التحضير للوفد بشكل منظم وفعال.. قررت أن أنظم إلى الوفد بشكل متنكر دون أن أعلن عن هويتي.. حينما اقترحت ذلك على أوسمان رفض الفكرة ورأى فيها مخاطرة غير محسوبة العواقب، لكنه ما إن نظر إلي تلك النظرة التي طالما أعتدنا تبادلها فيما بيننا في أوقات معينة، حتى أدرك أن المغامرة ذاتها هي ما أبحث عنه.. حاول بكل ما يملك من قوة إقناعي بالموافقة على انضمامه إلى الوفد، لكنني رفضت ذلك بإصرار .. قدرت أنه وجوده في المملكة في غيابي له فائدة أكبر من انضمامه إلى الوفد المفاوض.

أنا حقيقة لا اطمئن لأحد غيره، لذا قدرت أن المملكة ستكون بخير وهي في رعايته.

أسرجت ذات صباح "أودجاك" وتوجهت نحو وجهتي مرفوقا بعدد من رجالاتي، بعد أن طلبت منهم أن يعاملوني كواحد منهم، وأن لا يكشفوا هويتي الحقيقية إلى أي شخص، حتى للعناصر التي ستنضم إلينا من مملكة "شيشنق".. قطعنا مسافة طويلة، ونحن نرتب أوضاعنا، كنت أحاول أن أقنع رجالي بجدوى عدم الحديث كثيرا، وأن يكتفوا بان الإصغاء إلى ما سيطرح عليهم، دون أن يخوضوا في أي موضوع بشكل تفصيلي، وان يتركوا لي فرصة الحديث والتصرف دون أن يلفتوا الانتباه إلى مكانتي بينهم.. في الطريق التحق بنا رجال المملكة "شيشنق" كانوا منتقين بعناية، يظهر على وجوههم البشر، وسرعان ما يتعلق القلب بهم. يتمتعون بوسامة ظاهرة، وحين تحدثوا اكتشفت أنهم يجيدون الحديث بشكل مبهر.. لم ألمس في سلوكهم تهيبا أو ترددا، لقد كانوا مخلصين للملك "شيشنق" ويعتزمون افتداء ابنته توسمان بأرواحهم، و تلك أخلاق تتميز بها شعوبنا، عبر امتداد ارض الأمازيغ الممتدة..

بعد أيام من السفر لاحت لنا قلعة الرومان على مقربة من نهر "الليكسوس"..

لقد كانوا دقيقين وأذكياء في اختيار المكان، الذي استقروا فيه على ضفة النهر، غير بعيد عن شاطئ البحر، في أرض خصبة وافرة العطاء.. من بعيد لمحنا طابورا من الجنود يقومون بتمارينهم اليومية، يتقدمون بنظام دقيق، ويقومون بحركات مدروسة، يحملون في أيديهم سيوفا قصيرة، وأدرعا يحتمون بها من الطعنات خلال المعارك.. بعضهم يمتشق سهما طويلا يتجاوز طول الجندي منهم.. على رؤوس الجنود خوذات صنعت من المعدن، وعلى صدورهم قمصان تلتصق بأجسادهم، مزينة بقطع من الحديد والنحاس، سيقانهم عارية لكنها تبدو صلبة وقوية.. ما إن اقترب منهم الوفد حتى أسرع نحوه جندي يرافقه شخص من أبناء بلدنا، ليترجم له كلامنا.. قدمنا أنفسنا له، فطلب منا أن نتبعه..

فتحت أبواب القلعة المحصنة، ودخلناها متهيبين، نلتفت يمنة و يسرة . داخل القلعة يشبه خلية نحل ..الجميع يتحرك

هنا وهناك.. حدادون يصنعون أنواع من الأسلحة، ونجارون منهمكون في نجارة الخشب، يصنعون منه أشياء لا تخطر على البال. بناؤون يسابقون الزمن لصنع لبنات البناء.. الكل يشتغل في حماس منقطع النظير. الجنود يجوبون القلعة بكثير من الانضباط.. مسحت بنظري المكان، كنت أسجل في ذهني كل كبيرة وصغيرة، كان يهمني أن أتعرف على عدوي عن كثب، وأتاحت لي هذه المهمة القيام بذلك.

وصلنا إلى بناية تتوسط القلعة، أوقفنا الجندي. وحدثنا المترجم بلهجتنا طالبا منا الانتظار، اختفى الجندي للحظات، ثم عاد إلينا وطفق يرطن بلغته العصية على الفهم، بعد ذلك شرع المترجم في توضيح كلامه قائلا:

– سيستقبلكم القائد مساء.

أحسست بخيبة أمل.. لقد عوملنا بكثير من اللامبالاة أو المكر السياسي.. وصلتني الرسالة التي يرغب القائد في تبليغها إلينا.. إنه لا يجعل الأمر الذي أتينا من أجل من أولياته.

أشار إلينا الجندي بمكان توجهنا إليه، هو عبارة عن بناية متواضعة، ولجناها، ومكثنا هناك في انتظار حلول المساء.. في لحظة ما فرضت علي فكرة التجوال في القلعة نفسها، فعزمت على تنفيذها، غير أنني ما كدت أتجاوز عتبة البناية حتى فوجئت بجنديين يشهران أسلحتهما في وجهي، فتقهقرت إلى الخلف مؤثرا السلامة.. اخترقني إحساس ما لبث يقوى شيئا فشيئا بأنني والوفد مرافقي لي قد نصبح رهائن في أيدي الرومان، لكنني أبعدت عني هذا الهاجس، فالتقاليد الدبلوماسية بين الدول يتم مراعاتها حتى في حالة الحرب، ونحن جنحنا إلى السلم رغم أنهم معتدون وغزاة، فلا بد أن يعاملونا بشكل لائق. كنت قد حملت معي بعض الهدايا لأقدمها للقائد متوخيا من ذلك تليين نفسه، حتى يستجيب لطلبنا دون صلابة أو عناد.

مكثنا في مستقرنا، ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سنحظى فيها بمقابلة القائد، كان بعضنا قد غضب ورغب في التنفيس عن غضبه ببعض العبارات القوية، لكنني تدخلت وطلبت منهم لزوم الصمت، وأن لا يخوضوا في أي حديث

يسيء إلى مهمتنا. استجاب القوم بسهولة، لقد كانوا جميعهم من رجالات الدولة، الذين يقدرون الأمور أحسن تقدير.. تحدثنا عن أسلافنا وأرواحهم التي لا ريب ستساندنا في نجاح هذه المهمة الصعبة، دسست يدي في جرابي وتحسست الصدفة، التي أهداها لي ذات يوم أوسمان، أشعرني ذلك بكثير من الثقة.. في نفسي ترسخ يقين بأنني سأكون بمنآى عن أي شر، مادمت أحتفظ بالصدفة في حوزتي.. قدم لنا بعض الطعام والشراب. تناولنا قلة منه، لنبرهن عن حسن النية تجاه مضيفينا.. كنت على يقين أننا مراقبون بشكل من الأشكال، وأن القائد يتوصل باستمرار بتقارير تخبره بحركاتنا وسكناتنا، أعرف أن هؤلاء القوم يهتمون بدقائق الأمور، ولن يتركوا أي أمر للصدفة أو للارتجال.

تدريجيا غزت بنايتنا بعض الظلمة الخفيفة إيذانا بدنو وقت الغروب، تأكدنا من ذلك حين دخل أحد الجنود يحمل مشعلا، ثم ما لبث أن طاف على المشاعل المطفأة على جنبات الجدران، وأوقد النار فيها. فتحول المبنى إلى مكان مبهج،

يتسيده النور في كل مكان ..على هدي من هذا الضوء لاحت لي الكثير من التماثيل التي تنتشر على امتداد المكان، ذكرني ذلك بما حكاه لي الحكيم "يفاو" عن اهتمام هؤلاء القوم بهذا النوع من المنحوتات، يخلدون بها قادتهم ومفكريهم، بل يمتد الأمر إلى آلهتهم كذلك، التي تعز عن الحصر، تذكرت منها تلك الأثناء فينوس إلهة الحب، التي يزعمون إنها ولدت في البحر ونقلت إلى بلادهم في محارة.. وقيمتا إلهة المواقد العذراء ، ومارس إله الحرب وفيستا إلهة النار.

تمت دعوتنا للالتحاق بالبناية المركزية، حيث يقيم القائد الروماني تقدمنا بخطوات محترسة، كانت المشاعل في كل مكان تجود بنورها على القلعة.. توقفنا أمام بناية القائد، انتظرنا قليلا ثم أذن لنا بالدخول.. ولجنا البناية، فإذا بها قصر منيف، يختلف داخلها عن خارجها بشكل ملفت، إنها شاسعة وتتخللها أعمدة رخامية صقيلة.. التماثيل تنتشر في كل مكان، معبرة عن فخامة لا قبل لنا بها نحن الأمازيغ، الذين اعتدنا على شظف

العيش.. هناك في الباحة الوسطى بركة صغيرة تتوسط المكان، يلمع ماؤها عاكسا ضوء المشاعل.

مررنا بعدة مرافق قبل أن نصل إلى المكان، الذي سنلتقي فيه بالقائد، طلبوا منا الجلوس فجلسنا، ولم يمر سوى قليل من الزمن حتى هل علينا القائد يرتدي ملابس تبرز عضلاته القوية، إنه رجل خمسيني قوي البنية، أشيب الشعر، حاد الملامح.. في نظرته قوة وعنف لا يخفيان علي النظر.. تأملته عن قرب ،فبدأ لي فيه نوع من البساطة، التي تدل على أنه ينحدر من أصل بدوي، لكنه كان يجهد نفسه ليخفي ذلك.. رحب بنا القائد، ثم جلس في مقعده، حتى نكون نحن في مواجهته.. أخذ يتأملنا بمكر ودربة، ثم ما لبث أن طلب المترجم ، الذي حضر بسرعة أجلسه في مكان يتوسطنا، ثم لزمنا الصمت جميعا.. كنا ننتظر أن يبدأ بالكلام لكنه لم يكن متعجلا، خمنت أنه يبيت أمرا في نفسه، غير أنني وطنت نفسي على الصمت مقتديا بحكمة، علمني إياها الحكيم يفاو، ومفادها أن من يكسب المفاوضات هو الذي لا يستعجل في الحديث، وينتظر أن يتحدث مفاوضه،

ثم يبني حجته انطلاقا مما سمعه من كلاكم محدثه. فطنت بأن القائد يعرف تلك الحكمة، وربما استعملها مرارا .. فمن يدري من أي منجم للمعرفة يغترف هؤلاء الأغراب.. بعد لحظات أخذ المشهد أمامنا يتغير بشكل وتدريجي. وضعت مناضد، تحفل بما لذ وطاب من الخيرات، والتحق بنا عدد من الناس ، قدرت أنهم من الرجال المهمين في القلعة الرومانية.. ثم قدمت الخمور بشتى أنواعها.. تجاهلنا الجميع، وكأننا غير موجودين، وطفقوا يأكلون ويشربون بشهية مفتوحة.. قدمت لنا المنضدة، لكن أكلنا وشربنا كان قليلا جدا.. كنا لا ندري ما يخبئه لنا هذا القوم، فلزمنا الاحتراس حتى نتبين حقيقة نواياهم.

دخلت القاعة فرقة موسيقية، أخذ عناصرها أماكنهم المحددة، ثم بدؤوا في العزف.. موسيقاهم مختلفة عن موسيقانا لم أستسغ إيقاعاتها بداية الأمر.. بدت لي أكثر تعقيدا مما اعتادت أذناي سمعه والطرب على إيقاعاته.. تدريجيا اندمج الجميع في أجواء الموسيقى، ثم دخلت بعض الرقصات وشرعت يؤدين رقصات جميلة، كانت الراقصان يرتدين ملابس

شفافة، تكشف أكثر أجسادهن، استمر القائد ورفقاه يكرعون كؤوس الخمر بافتنان.. حضر في الذهن آنذاك باخوس اله الخمر عند الرومان، فلم أستغرب من إقبال القوم على الشرب بهذه الشهية وإسرافهم في تعاطيه، وكأنهم يمارسون طقسا دينيا للتقرب من أحد آلهتم، اله الخمر..

من يرى القائد وهو يتفاعل مع الموسيقى والرقص والغناء ويقبل على الشرب بكل هذا الشوق، لا يصدق أبدا أنه نفس القائد، الذي كان إلى وقت قريب يفرض سطوته على القلعة، وهو نفس الشخص الذي غزا بلادنا، واستطاع أن يقتطع منها هذا الجزء الغالي علينا من أراضينا، وربما يخطط لغزو باقي الأجزاء.. فكرت في الأمر، وقلت في نفسي ألا يمكن أن يكون في ذلك بالتحديد سر قوتهم.. إنهم أقوياء صارمين حين يمارسون أمور الحكم و الحرب، وعندما يخلون إلى أنفسهم يمنحونها حقها من الهزل والعبث.. لم يشغلني ذلك كثيرا، فقد كنت أتوقع ما سيحدث بعد هذه السهرة، التي أرادها القائد

الروماني باذخة وقوية، لكنني لم أغتر بكل ذلك.. لابد أنه يفكر في أكثر من التسلية، لقد تعلمت الشيء الكثير عن هؤلاء

الأغراب من الحكيم "يفاو".. إنهم متمرسون بأعمال السياسة وأحابيلها، وحادقون في تصريف أمورها، ولكل كلمة وعمل عندهم مغزى معين ، فلهم تصور مختلف عنا في تدبير أمور الحكم، حتى أنهم في بلادهم لا يسمحون للملك أن يستبد بأمور الدولة بمفرده.. حدثني الحكيم عن مجلس للشيوخ أو الأعيان أو ما شبه ذلك، يشارك بنصيب كبير في تعيين الحاكم، واتخاذ القرارات المصيرية للبلاد، وقد يعزلونه وينصبون مكانه غيره إن هو شط في حكمه، أو لم يراع رأيهم أو مصالحهم فيما يتخذه من قرارات.

الصدمة القوية ستحدث بعد ذلك بوقت قصير.. توقفت الموسيقى وانسحبت الراقصات.. رمق القائد الوفد بنظرة لم أفهم معناها جيدا، لكنها كانت تحمل رسالة ما، ربما تخبرنا أن أمور الجد ستبدأ الآن.. أشار بيده إلى شخص كان يقف في مكان ما.. تبدو على وجهه معالم المكر والدهاء، تلقى الرجل

الإشارة، فجأة ارتفعت الموسيقى من جديد، استغربت ذلك، لكنني فطنت بعد حين إلى أن الأمر جزء مما يفكر فيه القائد .. بعد لحظات جاء رجلان يسحبان امرأة ترتدي ثوب راقصة، وهي تقاومهما بشراسة.. ما إن ظهرت ملامح وجهها وأضحت واضحة حتى انتفض أحد أفراد الوفد من مملكة "شيشنف" وقال بدهشة واستغراب:

– الأميرة "توسمان".

هزتني المفاجأة، وتأكدت بما لا يدع مجالا للشك بأن القائد الروماني يسعى إلى إذلالنا ونحن في ضيافته، وربما لن تنتهي الأمور بخير لقد آلمني أن يتصرف الرجل بمثل هذه الصلافة والاستهتار، لكنني تحكمت في أعصابي وحاولت أن أكون هادئا قدر ما أستطيع.. في نفسي قلت "ماذا يمكن أن ينتظر المرء من قوم يعتبروننا هجما، ويطلقون علينا اسم "البربر" كما أخبرني الحكيم "يفاو"؟.. تأسفت للأمر، ومددت يدي خفية نحو الرجال ،أطلب منهم التريث والهدوء.. استجابوا على مضض.. أمر القائد الأميرة "توسمان" بأن ترقص وهو في شدة

هيجانه، لكنها كانت غاضبة، تبعد عنها أيدي الرجال، الذين يحاولون إجبارها على الرقص.

بعد محاولات فاشلة منهم، أو ربما بعد أن تأكدوا أن رسالتهم قد بلغتنا قوية المعاني ولا تحتمل الشك، صرف القائد الفتاة، التي بدت لي أجمل امرأة أراها في حياتي.. كانت تحفة فنية لا تضاهي، زادها شموخها وشراستها جمالا في عيني، فأقررت العزم منذ ذلك الحين أن أبذل المستحيل من أجل فك أسرها، والظفر بها زوجة لي.. فلا أجمل من أن تكون هذه المرأة أما لأبنائي.

بعد هذا الحدث المؤسف تغيرت نظرتي إلى القائد الروماني، كان قد تخلص من القناع الذي غطي وجهه إلى حين، وكشف عن وجهه الحقيقي الذي بدا لي شائها ومتسلطا، ولا يراعي كرامة الإنسان، مهما كانت مكانته، فبعد أن عرف أن "توسمان" أمير و ابنة أحد ملوك الأمازيغ الكبار سنا و مكانة، ها هو يعاملها بما يشين، وكأنه يقول لنا من خلال تصرفه هذا بأنه يحتقرنا، ولا يعير اهتماما لأعرفنا وتقاليدنا. بل إنه لا يسعى

للصلح معنا، وإنما يمضي حثيثا نحو الحرب، ولا يبغي عنها بديلا.

كنت فيما سبق عازما على تقديم بعض الهدايا إلى القائد الروماني كعربون على حسن النية، لكن بعد تصرفه الأهوج هذا وجدت نفسي في حل من ذلك وفضلت أن يسلبني هذه الهدايا بدل أن أقدمها له عن طيب خاطر.

كان الرجل منتشيا بما عبه من خمر، وبما قام به للتو من إذلال لنا، قهقه بصوت مرتفع، و رطن بلهجته لمدة طويلة، ثم طلب من المترجم أن ينقل كلامه إلينا، بعد أن تمادى في ثرثرته لمدة من الزمن، كاف ليصيبنا بكل أنواع المقت لهذا الرجل، فسح المجال للمترجم الذي قال:

– يقول القائد: إنني لن أقبل بأي فدية للإفراج عن أميرتكم، لكنني مستعد للتفكير في أمر إطلاق سراحها إن سلم ملوككم أمرهم إلي.

تبادلنا النظر فيما بيننا، ولزمنا الصمت، الذي ران بثقله علينا.. ربما اقتنعنا جميعا من أن لا فائدة من الحديث مع رجل

حسم أمره، ولا يرى غير الحرب سبيلا لحل المشكل بيننا وبينه.

بعد تأمل في الوضع، فكرت أنه لابد أن أقول شيئا، ربما أقتنع الرجل بوجهة نظرنا، رغم أنني كنت شبه يائس من ذلك.. طلبت من المترجم أن يأخذ لي الإذن من القائد بالكلام، فعل الرجل ذلك، لكنه تلقى ردا سلبيا ،فترجمه قائلا:

– لن أضيع وقتي بالاستماع إلى "الهمج".

توقف قليلا ثم أضاف:

– اعلموا أنكم أسرى لدي. لقد قدمتم لي بمجيئكم طوعا إلى قلعتي هدية لا تقدر بثمن، ما أغباكم ..تظنون أنفسكم في وضع يؤهلكم للتفاوض معي. كان هذا الكلام كفيل يجرف آخر قشة أمل تعلقنا بها جميعا. لقد أصبح الأمر واضحا ولا يحتاج لأي تأويل أو تفسير، لقد وقعنا في أيدي هذا القائد المتجبر، ولن تنفعنا معه أي مفاوضات. لزمنا الصمت في انتظار أن يتغير الوضع. لقد بدا لنا أن الرجل لم يفرغ كل ما في جعبته من مفاجآت، وحتما سيتحفنا بالمزيد، صب لنفسه المزيد من

الكؤوس شربها بكثير من الانتشاء، وطفق يتحدث بكلام كثير، لم نفقه له معنى، فيما كان رفاقه يستمتعون بحديثه ويقهقهون لقهقهاته. فطنت إلى أن يسخر منا ومن وضعنا البائس، اعتصر قلبي الألم، لكنني أبدا لم أدع لليأس سبيلا إلى نفسي.. ظللت متمسكا بالأمل في انتظار أن تحدث معجزة من نوع ما. ففي قرارة نفسي كنت متيقنا بأن أرواح أسلافي لن تتخلى عني، وحتما ستهب لنجدتي من هذا الوضع الحرج. لا أدري كيف تسللت يدي في تلك اللحظة إلى جرابي. تحسست الصدفة، وأحكمت قبضتي عليها فشعرت بكثير من الاطمئنان، و نوع من الاسترخاء قد مدد يده على نفسي، فتأكدت بأن الفرج قريب.

بعد لحظات من ذلك أسهب القائد في الحديث، ثم طلب من المترجم أن ينقل كلامه إلينا، فجمع الرجل شتات الكلمات التي تناثرت في الأجواء و أصبتنا ببعض من رذاذها الكريه، وقال:

– يقول القائد، إنه سيختار رسولا منكم إلى ملوك الأمازيغ، ليبلغهم رسالته البليغة هاته.

توقف المترجم للحظات، وكأنه يشعر بالحرج ثم أضاف:

– ستكون هذه المهمة من نصيب الرجل، الذي يأتي بكلام طريف، يضحك القائد.

التزم الوفد الصمت، وهم يبتلعون الإهانة ابتلاعا. لم يظنوا أبدا أن هذا القائد سيتمادى في غيه إلى هذا الحد. نظرنا إلى بعضنا البعض، ثم قلت حاسما الأمر:

– هذه فرصتنا لينجو أحدنا مما نحن فيه. فلنستغلها بأحسن ما لدينا ومن نجا منا من الأسر يبلغ الرسالة بأفضل ما لديه..

دب الحماس في الوفد، وطفق كل منهم ينقب في ذاكرته عن طرفة، تليق بما اقترحه هذا القائد العابث، استنجد البعض منا حكايات وطرائف من تراثنا الغني بالحكايات، و حاول سردها بأفضل طريقة ممكنة، وحين ينبري المترجم لتبليغ الحكاية إلى القائد، كان سرعان ما يوقفه ويقول له:

–هذا أمر تافه وممل.. لا أريد حكايات أرغب في طرفة مستحدثة ،لا حديث عجائز.

قلبت الموضوع في ذهني مرارا. تمسكت أكثر بتميمتي المتوارية داخل الجراب، وفي لحظة إشراق غير متوقعة انبثقت في ذهني الطرفة، طلبت الإذن بالكلام فسمح لي القائد بذلك فقلت:

– أحببت يوما صديقا لي وتمنيت أن أقدم له هدية، فلم أجد شيئا يستحق أن يكون هدية، تناسب مكانته في قلبي، فقررت أن أهديه نجمة في السماء.

ما إن نقل المترجم كلامي، حتى غرق القائد في الضحك، وكذلك فعل رفاقه، ثم رد علي قائلا:

– ماذا قلت ؟ نجمة، هههههه ..نجمة؟ إنه أمر طريف حقا.

ترجم الرجل كلامه، ثم أضاف:

– حقا إنك أغبى رجل أراه في حياتي، وهل قبل صديقك الهدية؟

راقني التأثير الذي أحدثته في نفسه، فرددت عليه قائلا:

– نعم ولا زال يحتفظ بها إلى الآن.

نقل المترجم كلامي، فازدادت قهقهة القائد ارتفاعا، وعلق قائلا:

– يحتفظ بها..... هههههه.. كيف يحتفظ بها؟

بعد الترجمة أجبته:

– لقد منحها اسمه، وكلما حن إليها تطلع إلى السماء ليتفقدها..

ازدادت قهقهة القائد ارتفاعا وتوهجا فتأكدت أنني فزت بحريتي.. نظرت إلى وجوه الوفد، فرأيت الاستحسان في ملامحهم ..ربما خمنوا أنني أفضل من يفوز بهذا الرهان، وأنني حتما سأهب لنجدتهم ما إن أعود إلى مملكتي وأعد العدة لذلك، ظهرت علائم البشر واضحة خصوصا على وجوه عناصر الوفد من مملكتي، الذين يعرفون هويتي الحقيقية، وربما سينقلون ذلك إلى باقي رجال الوفد من مملكة "شيشنق"، بعد أن أصبح بعيدا عن القلعة بمسافة كافية.

في تلك الأثناء تحديدا، أصدر القائد أوامره بإطلاق سراحي، بعد أن جردني الجند من الهدايا التي كنت أحملها للقائد. امتطيت صهوة " أودجاك" وانطلقت لا ألوي على شيء سوى الوصول إلى مملكتي في أسرع وقت ممكن، لأعد العدة للحرب، التي بدا لي أن لا مفر من خوضها قبل أن نغزى في عقر ديارنا.

في طريق نحو الديار، همست في أذن "أودجاك" ببعض الكلمات، فانطلق كالسهم يطوي المسافات طيا أحسست في تلك اللحظة بأنه أكثر من حصان، بل إنه حصان حقيقي، يستشعر مدى دقة الموقف الذي أجد نفسي فيه، فلم يخذلني، بل مضى غاضبا قويا، وكأنه أحس بما أحسست به، ويتمني أن أسرع كي أعد العدة للحرب..

الفصل السابع

قبل التوجه إلى مملكتي ، عرجت على مملكة الملك "شيشنق"، الذي استقبلني بنفس الحفاوة وبكثير من الترقب. أخبرته بما حدث في قلعة الرومان، رمقني بكثير من الاندهاش، إذ لم يتصور أبدا أن أتحلى بكل تلك الجرأة لأقتحم أسوار الغزاة، وآتي بخبرهم اليقين.. حدثني الملك بكثير من الحدب والتقدير، فأخبرته بما أنا عازم علي، فبارك قراري وقال:

"أيها الملك غيلاس، إن كل إمكانياتي المادية والبشرية تحت تصرفك، فانظر ما أنت فاعل، وأنا ومملكتي معك".

حييت الملك بما يستحق من احترام و تقدير، ثم امتطيت صهوة" أودجاك" وانطلقت صوب مملكتي.. لم يغرني التعب بالتوقف، كي أنال قسطا من الراحة، وإنما سعيت حثيثا للوصول إلى المملكة، حتى دعوة الملك شيشنق لي بالمبيت في ضيافته لم تجد هوى في نفسي.. لقد قدرت أن للوقت أهميته القصوى، لذا عزمت على استغلاله إلى أقصى حد.

وصلت القصر، فوجدت وزيري "أوسمان" مشغول البال قلقا، وما إن حط علي بصره حتى انفرجت أساريره، وأقبل نحوي هاشا باشا، و ارتمى في حضني معانقا.. أمطرني بسيل من الأسئلة، لم أرد عليها سوى بابتسامة، تشي بالامتنان لإخلاصه ووفائه وصداقته.. بعد ذلك بوقت قصير، جمعتنا غرفة جانبية فأخبرته بكل ما حدث لي في قلعة الرومان، وتوقفت كثيرا عند نجمته الشهيرة، التي أنقذتني من بطش الغزاة.. ابتسم أوسمان فظهرت أسنانه ناصعة البياض، وانخرطنا معا في جو من الفكاهة، افتقدته منذ زمن طويل، فرغم شدة الموقف ودقته وجدنا لأنفسنا متسعا للمزاح.. قهقهنا بأصواتنا المرتفعة وتنذرنا بغباء الغزاة الذين يعتبرون أنفسهم أذكى البشر وأنبلهم، و مع ذلك تم خداعهم بأبسط الوسائل وأتفهها، بعد ذلك انتقلنا إلى العمل الجاد كان لابد أن نرسم خطة محكمة للهجوم على الغزاة، بعيدا عن أعين المتلصصين.. لقد عزمت على استغلال نقطة ضعف الرومان، والتي تتمثل في غرورهم

المفرط، فهم ينظرون إلينا كبرابرة، وهمج متوحشين، لا قدرة لنا على التخطيط والمباغتة، وفي ذلك مقتلهم.

حدثت أوسمان عن دقة تنظيمهم، وصرامتهم في التعامل مع جنودهم، وهذا ما ينقصنا نحن الأمازيغ، الذين يتمتع كل فرد منا بالشجاعة والفروسية والقوة، لكن ما إن نجتمع حتى يظهر للعيان ضعفنا، لأن كل فارس منا يسعى ليكون جيشا بمفرده، يتصرف على سحيته، دون أن يلزم نفسه بالخضوع للتخطيط والعمل كفريق، فكانت مهمتنا الأولى أن نجمع أفضل الفرسان، وندربهم على الإذعان للنظام والعمل الجماعي، فمهما بلغت قوة الأفراد، فإنها لن تفيد فتيلا، إذا لم تستثمر ضمن جيش نظامي محكم التنظيم.

في صباح اليوم التالي اجتمعت بكثير من العناصر المتنقاة، التي قررت أن أبعثها في مهمات سرية إلى القبائل والممالك الأمازيغية ..اخترت لذلك شبابا يتقدون حماسا، وبالتفاصيل المملة شرحت لهم مهمتهم، ثم انطلق كل منهم إلى وجهته.

صحبة وزيري أوسمان شرعت في الإعداد لفرقة عسكرية محكمة التنظيم أردناها القوة الضاربة للجيش، الذي سيغير على القلعة الرومانية.. أبدى أوسمان حماسا منقطع النظير.. لقد اعتبر المعركة معركته الشخصية، ولابد من الظفر بها.. أبدى حرصا كبيرا على ذلك أكثر ما كنت حريصا عليه، ركزنا على ضرورة تمتع الفرقة بحس العمل الجماعي، و بأن يكون الفرد – مهما كانت قوته ومهارته – في خدمة الفريق..

في مكان بعيد عن الأنظار اجتهدت لتصميم مجسم، يحاكي قلعة الرومان بأسوارها وأهم مواقعها الداخلية، ثم طفقت رفقة أوسمان والعناصر المتنقاة بعناية نضع الخطة المناسبة لاقتحامها.. فكرنا بداية في الطريقة التي يمكننا بها القضاء على الجنود الذين يحرسون القلعة، والذين ينتشرون على امتداد أسوارها، لذا حرضنا بعض عناصر الفرقة على التدريب على تسلق الجدران، واكتساب القدرة على المباغتة، حتى يكون عملهم ناجحا وفعالا.. فرضت علي حرب طروادة – كما حكاها لي الحكيم يفاو– نفسها بقوة، كنت استرجع بعض

تفاصيلها في ذهني بكل تركيز، محاولا الاستفادة منها ..لقد استطاع مهاجمو مدينة طروادة أن يتسللوا إلى داخلها، موظفين حيلة الحصان الذي كمنوا في أحشائه حتى أرخى الليل سدوله، فحطموا الحصان الخشبي وخرجوا من جوفه، ثم انتشروا داخل المدينة بعد أن فتحوا أبوابها لباقي الجنود، فكانت هزيمة جنود طروادة النكراء.. فكرت أن يكون لنا وجود داخل المدينة بأي شكل من الأشكال، لذا استقر رأيي في الأخير وشاركني فيه صديقي أوسمان على أن نجهز قافلة تحتوي على أفضل ما تتوق إليه نفوس الرومان من الخمور والنساء، ثم تتوجه نحو القلعة لتبيع بضاعتها، وهناك يسهل علينا الدخول إليها أو على الأقل نكون في مكان قريب جدا منها.. اخترنا بعض الفتيات للمشاركة في هذه المهمة، وقمنا بتدريبهن على حمل السلاح ورشاقة الحركة، فأظهرن قوة وبأسا، فاجأني أنا شخصيا.. حين علمت "توزين" بالمهمة قررت أن تنظم إلى المجندات.. عبثا حاولت إقناعها بصعوبة المهمة، غير أنها أبدا لم تقتنع بكلامي، لقد تملكتها روح عنيدة، لا تلين فاضطررت إلى الموافقة على

انضمامها إلى الفريق، ومن الغريب أن "أوسمان" كان سعيدا بذلك، لقد بدا أكثر ابتهاجا بذلك، بل أضحى إنسانا مختلفا تماما. يشتغل بلا كلل، ولا يكف عن تزويد الفريق بكل ما يحتاجه من دعم مادي ومعنوي.

تدرب الفريق ليلا ونهارا فلم يمض بعض من شهر حتى أصبح الجميع جاهزا لتنفيذ المهمة، فقط كنا ننتظر الوقت المناسب لفعل ذلك.. عاد الرسل الذين بعثتهم إلى الممالك والقبائل، فاستمعت إلى كل رسول على حدة، لمست استجابة قوية عند البعض، وترددا عند البعض الآخر، لكن ذلك لم يثنني عن عزمي ..لقد كان يكفيني أن تساندني مملكة الشمال، المحاذية للبحر، لأنها ستمنع على الأقل الإمدادات من الوصول إلى الرومان في قلاعهم، و هذا الأمر سييسر مهمتي كثيرا.

بانضمام "توزين" إلى فرقة النساء المجندات حدث ما كنت أخشاه، لقد صمم أوسمان أن يكون ضمن القافلة التي ستتوجه

نحو القلعة الرومانية.. أعرف أن دافعه هو الحب، الذي يكنه لتوزين، فخفت أن يؤثر ذلك على سير العملية ككل.

في المساء اختليت بوزيري أوسمان وقلت له:

– أوسمان، إنك تغامر بانضمامك إلى القافلة.

نظر إلي نظرة متوسلة ثم قال:

– أبدا يا صديقي ويا ملكي.. بل فائدتي في القافلة ستكون كبيرة.

– اشرح لي أيها العبقري. قلت ساخرا.

علامات البأس ظهرت على ملامحه، ولمعت عيناه ببريق الذكاء ثم قال:

– سيكون من السهل أن أتسلل إلى القلعة.. لابد أن أحدهم سيطمع في شرائي فأنا قوي البنية وهذا سيسهل مهمتنا.

فكرت قليلا، ثم رددت عليه قائلا:

– اسمع يا أوسمان أنا أعرف دافعك الحقيقي للانضمام إلى الفرقة.

– ما هو ؟ قال مستفسرا.

صمتت للحظات ثم قلت:

– أنت تحب "توزين" و ترغب في حمايتها.

شعر أوسمان ببعض الحرج، أشاح بوجهه بعيدا، ثم كمن حسم أمره، نظر إلي نظرة تابثة، ثم قال:

– لا أنكر ذلك.. هدفي هو حمايتها، وإنقاذ "توسمان" من الأسر في نفس الوقت.

فكرت قليلا ثم رددت عليه:

– نعم أنا متأكدة من ذلك، لكن أخشى أن تؤثر عاطفتك على العملية.. سنشغل بحماية "توزين" وهذا قد يضعف من تركيزك.

ابتسم لي ابتسامة المعهودة، ثم قال:

– لا أبدا بل ذلك سيحفزني أكثر على بذل أقصى ما أستطيع..

كنت قد فكرت أن يكون الهجوم على محاور عدة. يأتي الجنود من الشمال والجنوب والشرق والغرب، لكن ردود بعض الملوك أحبطتني، فقررت عدم التعجل.. سنبدأ أولا بهجوم

خاطف، نفتك به أسر "توسمان" ثم نعد العدة في هدوء وتأن للهجوم الكاسح الذي يحطم أسوار الغزاة، ويدك حصونهم، فيعودوا إلى بلادهم، هناك في الجهة الأخرى من البحر.. راهنت على أن مهمتنا هاته إن حالفها التوفيق ستحفز الممالك الأمازيغية على التخلص من ترددها، وستلتحق بنا لتدعمنا في مجهوداتنا لتحرير أراضنا من الغزاة.

حين اقتنعت بذلك وبدا لي منطقيا وعمليا، أوفدت الوفود إلى الملوك ورؤساء القبائل الذين أبدوا الرغبة في المشاركة في الحرب، أشرح لهم الظروف، وأقترح عليهم التريث حتى يتم الإعداد الجيد للهجوم الكاسح.

في إحدى الأمسيات قمنا بالتمرين على الهجوم في المنطقة النائية، التي اخترناها لذلك، فمر كل شيء بسلام، وكما توقعته.. حينذاك فقط ترسخ القرار في ذهني قويا، لا يمكن قهره، سأشارك في المهمة، وسأكون ضمن القافلة التي ستتوجه نحو القلعة لاقتحامها.. قلبت الأمر في ذهني مرارا، ولم يزدني

ذلك إلا اقتناعا به.. أخبرت أوسمان بذلك، فتملكه الاستغراب قال مندهشا:

– أنت الملك يا صديقي لا يمكنك فعل ذلك .

رددت عليه بهدوء:

– وما المانع من ذلك ؟

فاغرا فاه رد علي:

– والله إنك مجنون.. لا يا صديقي.. أبدا لن تفعل ذلك.

حاسما أمري أجبته:

– بل سأفعل.

و ممازحا أضفت:

– أنا الملك وأفعل ما أشاء.

بلهجة جادة، رد علي أوسمان:

وراءك مملكة وشعب، إن أصابك أي مكروه ضاعت المملكة وضاع الناس معها.

بوثوق أجبته قائلا:

– لن يضيع أي شيء.. سننجح في مهمتنا.

في تلك اللحظة الصاخبة، و انا أجادل صديقي و وزيري أوسمان، التحقت بنا "توزين".. بدت مشرقة وقوية، خاطبتنا بلهجة محببة:

– ما بكما؟ فيم جدالكما ؟–

نظر إليها أوسمان ثم قال:

– اسمعي آخر الأخبار.

نظرت إليه بعينين متسائلتين ، ثم قالت له:–

– ماذا؟

– الملك يريد المشاركة بنفسه في المهمة.

مستغربة علقت توزين:

– ماهذا ؟غير معقول.

التقطت كلماتها، فردد عليها:

– ولم غير معقول؟ وهل من المعقول أن تشاركا أنتما، فيما أظل انا هنا قاعدا، أنتظر أن تأتيني الأخبار؟

ردت علي توزين:

– أنت الملك.

– وليكن.

– وراءك مهمات أسمى وأجل.

حاسما ألأمر أجبتها قائلا:

– هذه مهمة سامية، حين ننجح فيها ستتغير أمور كثيرة.

عقبت "توزين" قائلة:

– هل أنت جاد في كلامك؟

– طبعا جاد، وسترين.

تحركت القافلة بشكل خفي، ومضت في طريقها نحو الشمال، استغللت فرصة مرورها بمملكة "شيشنق"، فقمت بزيارة سرية إليه.. استقبلني كالعادة بكثير من الترحاب.. جلسنا منفردين، تناولنا بعض الطعام والشراب ثم قلت له:

– ستسمع أخبارا سعيدة في وقت قريب.

نظر إلي بتمعن ثم سألني قائلا:

– بخصوص "توسمان" ؟

بثقة تامة رددت عليه

– نعم بالتحديد.

قلب الأمر في ذهنه، ثم سألني:

– ماذا ستفعل ؟

صمتت للحظات، ثم رددت عليه:

– لن أخبرك بشيء الآن حتى لا أحرجك.

بحزم خاطبني قائلا:

– لابد أن تخبرني.

فكرت في كلامه فوجدته منطقيا، فقررت أن أخبره، حينها قلت له:

– اسمع أيها الملك سنقوم بهمة سرية لفك أسرها.

تدبر الأمر في ذهنه ثم قال:

– هل يمكن أن أساعد بشيء؟

بلهجة حاسمة رددت عليه:

– لا طبعا، لكن يجب أن تجهز جيشك ليكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن مملكتك.

مستغربا سألني:

– هل سيهاجمنا الرومان؟

بكلمات غير حاسمة أجبته:

– لا شيء مؤكد ..من المتوقع ذلك.. لا أحد يعرف ردة فعلهم.

مثنيا على كلامي رد قائلا:

– نعم أحسنت، سأستنفر الجيش ..متى ستنفد المهمة ؟

– في ظرف أسبوع على أكثر تقدير.

– بالتوفيق أيها الملك ..كم أتمنى لو شاركتك في إنجاز هذه المهمة .

– لا عليك فأنت ومملكتك مشاركان فعلا ..

– كيف ذلك؟

– ألا يكفي أن ابنتك في الأسر، ولم تقدم أي تنازل للغزاة من أجل استرجاعها.

– نعم.. ياااه كم اشتقت إليها.. لكن لا حلية لدي.

بحسم تدخلت قائلا:

– ستعود قريبا إليك.

أفرج عن زفرة طويلة، ثم قال:

– أتمنى ذلك.. بالتوفيق أيها الملك.

الفصل الثامن

تحت جنح الظلام ودعت الملك، "شيشنق" وتوجهت صوب القافلة، حيث قضينا ليلتنا، نتدرب على استعمال السلاح ونحافظ على جهوزيتنا للقتال في أعلى مستواها..

في الصباح الباكر شددنا الرحال لاستئناف رحلتنا.. قطعنا الكثير من الأراضي، وتوقفنا في مدن ومداشر، حرصنا على بيع أقل ما يمكن، حتى نحتفظ ببضاعتنا للغاية المنشودة.

لم يعد يفصلنا عن القلعة الرومانية غير مسيرة ساعات.. عسكرنا هناك في انتظار الوقت المناسب.. أرسلنا أعينا لتتقصى لنا أخبار الغزاة، لقد قررنا أن نتوجه نحو القلعة حين يغادرها عدد كبير من الجنود للقيام بجولة تفقدية في أرض بعيدة، أو التوغل في أرض جديدة للسيطرة عليها. كنا حريصين على إخفاء أنفسنا وأن لا نشعل نارا، حتى لا يفتضح أمرنا.

مر الوقت بطيئا ..الجميع يتشوق للمرحلة الحاسمة.. كنت أمر على المجندين والمجندات أطالبهم بالصبر والانضباط للأوامر.. أختي توزين أظهرت موهبة كبيرة في القيادة.. كانت

تحض الفتيات على الالتزام بالتمارين الرياضية، واستعمال السلاح، فيما كان أوسمان يرقب الجميع بعينه التي لا يغفل عنها شيء، كان يفكر بشكل شامل، إذ كثيرا ما فاجأني بملاحظات دقيقة، تضيف لمسات هامة على الفرقة المجندة، فتبدو عند الأخذ بها فعاله وذات جدوى..

جاءنا الخبر اليقين بخروج فيلق من الجنود من القلعة، أخبرني أحد عيوننا قائلا :

– إنهم خرجوا يا سيدي الملك.

– كم عددهم؟

– يفوقون المائتين.

– ممتاز.

– أين وجهتهم؟

– الغرب.

– إذن لقد جاءتهم إمدادات عبر الشاطئ.

– ربما.

– هذا ممتاز سيتأخرون في العودة.

– ماذا أفعل سيدي؟

– سترافقهم عن بعد، وإذا ما حدث أي تغيير في مسارهم، تعود بسرعة وتخبرني.

– نعم سيدي الملك.

ذهب الرجل إلى حيث أمرته،عقدت اجتماعا طارئا و سريعا مع أوسمان وتوزين، أخبرتهما بالمستجدات، تداولنا الأمر بعمق، فقررنا في تلك اللحظة أن ننطلق بالقافلة نحو القلعة الرومانية.. انتظمت الإبل في صف طويل، وشرعت تمضي الهويني نحو وجهتها.. كان الجميع على أهبة الاستعداد للقيام بالمهمة المنتظرة.

بعد مسير ساعتين تقريبا أشرفنا على القلعة.. لا حظنا الجنود منخرطين في تدريبهم اليومي، يقطعون مشيا مسافة محددة ذهابا وإيابا، معلنين عن انتهاء كل جولة من المشي بأصوات مرتفعة و حركات محددة.. أمرت بعض المجندين بالكمون في أماكن قريبة من القلعة، للاهتمام بشأن هؤلاء

الجنود خارج القلعة، حينما يحين الوقت المناسب.. كانوا رماة ماهرين، لذا قدرت أنهم سيجهزون عليهم بسرعة.

وصلت القافلة إلى بوابة القلعة، فتوجه أحد الجنود نحونا، ثم سرعان ما طلب منا التوقف.. أخذ يرطن بلغته فلم نفهم مما نطق به شيئا.. أخذت أرد على كلامه بلهجتي، فتعسر التواصل بيننا.. طلب منا الانتظار، عاد نحو القلعة، ثم رأيناه بعض لحظات يقبل نحونا، يرافقه رجل قدرت أنه مترجم.. تملكني الرعب من ذلك، فالمترجم يعرفني جيدا.. لقد التقيت به سابقا في القلعة، لذا أخذت أتوارى بين المجندين، لكن ما إن اقترب مني، حتى تأكدت بأنه شخص مختلف، بالتأكيد ليس المترجم الذي التقيته هنا سابقا.. سألني الرجل:

– ماذا تريدون ؟

أجبته بلهجة متملقة:

– نحن تجار، ولدينا بضاعة جيدة،نرغب في تسويقها في القلعة.

تحدث المترجم مع الجندي ثم رد علينا:

– يقول لكم: من المستحيل أن تدخلوا القلعة.

رددت عليه قائلا:

– أسعارنا جيدة، وسنقدم هدايا للقائد. لدينا خمور ونساء سنقدمها له هدية.

تحدث الجندي مع المترجم ، الذي خاطبنا قائلا:

– انتظروا هنا.. سيستشير القائد.

لزمنا أماكننا منتظرين. كنا جميعنا مسلحين. نخفي سيوفنا وخناجرنا تحت ملابسنا. بعد فترة من الانتظار بدت لنا طويلة طول الدهر، انفتحت البوابة، وإذا بالقائد نفسه يقف في ساحة القلعة مرحبا بالقافلة.. زحفت الجمال إلى الداخل محدثه صخبا، فأحاط بنا الجنود من كل جانب وقد تخلوا عن أسلحتهم.. كنت قد أمرت المجندين أن ينتظروا مني إشارة الهجوم.. أحطت وجهي باللثام، واستمررت في التقدم، وقد تيقنت أنني قد فتحت على نفسي وعلى فرقتي المجندة باب الجحيم، فكان لزاما علي أن أتصرف بحكمة، حتى لا ينقلب الأمر إلى كارثة تعصف بنا جميعا..

توقفت القافلة، فأقبل القائد نحونا، ومعه المترجم، الذي قابلناه قبل الدخول إلى القلعة.. تحدث القائد، وترجم المترجم كلامه، فإذا به يستفسر عن هديته.

أخذت جرارا من الخمر قدمتها له باحتفاء، فاستدرك قائلا:

– وأين النساء ؟؟

ما إن نقل لنا المترجم كلامه ،حتى فوجئت بتوزين تقدم نفسها إليه، وفي إثرها أوسمان.. فطنت إلى ما يفكران فيه، فاستدركت قائلا للقائد:

– أقدم لك سيدي هذه الجارية، وهذا العبد عربون محبة.

ابتهج القائد بالعطية فسحب "توزين"، وأمر أوسمان بحمل جرار الخمر، وانصرف تعلوه الفرحة بغنيمته.

في تلك الأثناء، طلبت من المترجم أن يحدث الجنود، ويخبرهم بأن صاحب القافلة يتطوع بالخمر مجانا للجنود، ثم قدمت لهم العديد من الجرار التي أعددتها لهذا الشأن. كان الجرار مسمومة.. بدا الجنود مبتهجين بشرب الخمر، وهم يصرخون ويتراقصون.. لم يمض الكثير من الوقت حتى بدأ

الجنود يتلوون من الألم، وإذا بنا نخرج أسلحتنا المخبأة. أعطيت الإشارة وبدأنا بالهجوم في وقت واحد.. أخذنا نحصد أرواح الجنود تباعا ..رفعت رأسي، فبدا لي "أوسمان" "وتوزين" يغادران مقر القائد، فقدرت أنهما تمكنا منه وأردياه قتيلا..

بشكل محكم وخطة مدروسة استطعنا إحكام قبضتنا على القلعة.. بعد لحظات التحق بنا الرماة الذين تركناهم خارج القلعة للإجهاز على الجنود، الذين يحرسونها من الخارج.. أخذ الجنود الذين يعتلون الأسوار ينفخون في أبواقهم داعين مستنفرين الجنود في القرب للالتحاق بالقلعة. تكفل بهم المجندون الذين تدربوا على تسلق الجدران فقضوا عليهم في وقت قصير.

حين استتب الأمر لفرقتنا أخذنا نفتش الغرف والدهاليز والسجون، حتى عثرنا على توسمان ابن الملك "شيشنق" وباقي رجال الوفد، الذين اعتقلهم القائد الروماني. فككنا أسرهم.. حملنا معنا بعض الأسحلة كغنيمة حرب، و قررنا مغادرة المكان بأسرع وقت ممكن.

هكذا نجحت مهمتنا. أشعلنا النيران في القلعة، وانطلقنا في اتجاه المملكة.

حين حططنا الرحال في مملكة شيشنق أخذت معي وفدا صغيرا وحملنا معنا الأميرة توسمان إلى أبيها الملك. الذي ما إن وقعت عيناه على ابنته حتى دمعتا من شدة الفرح. بعد أن عانق الملك ابنته، توجه إلي فحضنني حضنا كبيرا. لم يتمالك الملك شيشنق نفسه، فقال:

– يشرفني أن أرد على طلب خطبتك لتوسمان الآن. يسعدني أن تكون توسمان زوجتك.

في تلك الأثناء شعر الملك بتسرعه، فالتفت إلى ابنته، وكأنه يعتذر منها لاتخاذ القرار نيابة عنها فاستدرك قائلا:

– طبعا إذا لم يكن هناك مانع لدى "توسمان".

نظرنا كلانا إلى "توسمان" فبدت جميلة، ومتوهجة وموافقة، دون أن تنبس ببنت شفة، فاكتفى الملك و اكتفيت معه بصمتها البليغ وحيائها الطافر من حمرة خديها الجميلين.

لم أستمر طويلا في ضيافة الملك شيشنق، إذ سرعان ما استأذنته لمتابعة المسير نحو مملكتي، تفهم الملك شوقي للرحيل، فوافق على طلبي، وهو يحثني على أن تكرار الزيارة في ظروف أفضل، فوعدته بذلك.

استقبلنا المملكة استقبال الأبطال، لقد انتشر خبر اختراقنا للحصن الحصين للغزاة، كانتشار النار في الهشيم، وانطلاقا من صباح اليوم التالي تلقينا العديد من الوفود المهنئة، والمرحبة بأي تعاون مستقبلي للدخول في حرب شاملة ضد الأعداء، توصلت مملكتنا بهدايا كثيرة من الملوك ورؤساء القبائل، فلم يلهنا ذلك عن الإعداد للعرس، الذي بيتت النية في أن يكون عرسا مزدوجا.. لذلك اختليت بأختي" توزين" وقلت لها بدون مواربة:

– توزين ما رأيك في أوسمان؟

أشاحت ببصرها عني، ثم قالت:

– ماذا تقصد؟

رددت عليه بشكل مباشر:

– أنت تعرفين ما أقصده.

خفضت توزين رأسها حياء، ترددت للحظات، ثم قالت:

– لا أعرف ماذا تقصد تحديدا؟

حين سمعت كلامها، كان علي أن أكون أكثر تحديدا، فسألتها:

– هل تحبينه؟ أجيبيني لا تخجلي مني.

تخضب وجهها أكثر بدماء الخجل لم ترد، فأردفت قائلا:

– تعلمين أنني سأتزوج من توسمان ابنة الملك شيشنق، وأريد أن يكون عرسنا في يوم واحد، لا بد أن تحسمي أمرك.

خفضت رأسها ثم قالت بصوت واهن:

– الرأي رأيك يا أخي.

قالت ذلك وانسحبت، و هي تحمل في ثناياها كلاما منعها الحياء من أن تنطق به.. لقد كنت أعرف مدى تعلقها به، وكان ذلك يسعدني كثيرا، فلا أفضل من أن يكون صهرك صديقا تكن له كل العواطف النبيلة، عواطف الصداقة والأخوة والمصير المشترك..

ما إن غادرت "توزين" المكان، حتى استدعيت "أوسمان" إلى مجلسي، جاء بقامته الفارعة، تتقدمه ابتسامته الأثيرة.. استقبلته بكثير من الحفاوة، أجلسته بجانبي، ثم ما لبثت أن خاطبته قائلا:

– بعدما تحقق لنا ما تحقق، ما هي أمنيتك الآن؟

نظرت إليه نظرة محتفية، ثم أردفت قائلا:

– أنا محقق الأمنيات يا صديقي.. تمن علي.

احتار أوسمان في أمري.. رأيت الارتباك على ملامحه، فأعجبيني ذلك.. حملق في وجهي بنظرته البريئة، ثم قال:

– مابك يا صديقي ويا ملكي؟ هل فرحة الزواج أثملتك إلى هذا الحد؟

تلقفت كلمة الزواج من لسانه، وبنيت عليها كلامي فقلت:

– نعم الزواج.. بالمناسبة ألا تفكر في الزواج أنت كذلك؟

لا أدري كيف اغتم صديقي حينما طرحت عليه سؤالي، تعكر مزاجه وأفرج عن زفرة معبرة، ربتت على كتفيه، وخاطبته قائلا:

– هون عليك يا صديقي.. ألم أقل لك بأنني محقق الأمنيات؟ فقط تمنى شيئا وجربني.

بدأ عقل أوسمان يشتغل بقوة.. لقد فطن إلى أنني أخفي عنه شيئا.. تردد للحظات ثم قال:

– لقد أربكتني يا صديقي.. ماذا تخفي؟ أخبرني رجاء.

دون تردد قلت له:

– العروس موافقة.

منبهرا رد أوسمان:

– حقا؟

مؤكدا على كلامي أضفت:

– نعم حقا لقد تحدثت قبل قليل.

قام أوسمان من مكانه، و ارتمى في حضني، والتصق بي كما يلتصق الطفل بأمه، بادلته نفس المشاعر، ثم قلت له:

– سيكون عرسانا في يوم واحد.

تواترت الأخبار عن غضب كبير يحتقن في نفوس الرومان، لقد شعروا بالغبن، لم يتوقعوا ابدا أن تتحداهم، مملكة صغيرة

وتخترق حصنهم المنيع، وتطلق سراح الأسرى، وتنتهي بإحراق قلعتهم.. لقد أصابهم الحادث في مقتل ..أربكهم وجعلهم يعيدون حساباتهم على أسس ومعطيات جديدة.. الأمازيغيون الذين كانوا ينظرون إليهم كبرابرة وهمج كبدوهم خسائر لم تخطر على بالهم أبدا..كنت أعرف أنهم سيسعون للانتقام، وربما بضربة قوية لم يسبق لها مثيل.. لكنني كنت على يقين أنهم يحتاجون الكثير من الوقت ليفعلوا ذلك.. يحتاجون أولا إلى استيعاب ما حدث وامتصاص الصدمة، ثم إعادة بناء صفوفهم من جديد، بعد أن يتلقوا الدعم من روما أو من المناطق المجاورة، التي استولوا عليها داخل أراضينا.. أنهم يحتاجون إلى الوقت، وهذا بالضبط ما أنا في أمس الحاجة إليه.. سأقيم حفل زواجي وزواج صديقي، أوسمان بأختي توزين، ثم أتفرغ للأمور الأخرى، أمور الحرب تحديدا ..لقد أصبحت الحرب قدري، وعلي أن أواجه هذا القدر بكل ما أملك من قوة وعزم، حتى الزواج سأوظفه لصالح هذا الصراع، فأن أتزوج بابنة الملك شيشنق الأميرة" توسمان"، فهذا يعني أن مملكتينا

ستصبحان مملكة واحدة بملكين، لكنها في العمق تخفق بقلب واحد و تهفو لمصير مشترك..

سلطت بعض" العيون" ليزودوني بتقارير دورية عن تحركات الرومان، ومدى استعدادهم لخوض الحرب، وأكدت لي جميع التقارير أنهم مرتكبون، ولا يمكنهم القيام بأي خطوة في الوقت الحالي.

بدأت الاستعدادات للعرس، أرسلت وفودا إلى جميع القبائل والممالك الأمازيغية. فلم يمض زمن طويل حتى بدأت مملكتنا تستقبل وفودا من الممالك القريبة والبعيدة، لقد حرص الجميع على المشاركة في العرس، وكأن الأمر يتعلق بأكثر من مجرد عرس زواج، فصدى ما حدث للرومان لا يزال يتردد في وهاد وجبال وهضاب وسهول الأمازيغ، حتى أن حكايات نسجها خيال الناس، تستلهم الحدث بأشكال متعددة، وردد المغنون اسمي في أكثر من أغنية شعبية، أصبحت دارجة على كل لسان.. ونظم الشعراء قصائد من وحي الحدث، سمعت منها هذه القصيدة.

غيلاس أيها الملك العظيم
غيلاس شبل أمازيغي
رضع حليب الشجاعة
من ثدي
أرض الأمازيغ الأبية"تمغزا"
محروسا بروح الأسلاف
ومدفوعا بعشق توسمان
أغار أسد الأمازيغ
على قلعة الغزاة
دك أسوارها
وأعاد للأمازيغية الحرة
بسمتها الندية
غيلاس موحد الأمازيغ
وباني أمجاد
مملكة الأسود

الحرة الأبية.

نصبت الخيام في الساحة الكبرى، واستمرت الأهازيج لفترة طويلة، كانت قد ابتدأت قبل الموعد المحدد لإقامة العرس، قبل يومين من الموعد الرسمي، استقبلت المملكة وفدا كبيرا من مملكة "شيشنق"، لقد انتظموا في قافلة كبيرة، محملة بعدد كبير من الهدايا، يشرف عليها فرسان منتقون لهذه الغاية. علمت بقدوم القافلة، فأعددت وفدا لاستقبالها. حين التقى الجمعان، عمت الفرحة الجميع، وتحلق الناس من القبيلتين بالجمل الذي يحمل في هودجه العروس، التي كانت متألقة، وجميلة بشكل لا يصدق، يزينها الوشم على جبينها، وفي ذقنها. كما تنتشر أنواع من الحلي على امتداد جسدها الغض الفاتن.

مفاجأتي كانت كبيرة حين اكتشفت وجود الملك "شيشنق" ضمن القادمين إلى مملكتنا. لقد جاء بشكل سري، حتى لا يلفت الانتباه إليه، استقبلته بالأحضان، وقضيت في صحبته

كثيرا من الوقت، فامتزج حديثنا بالسياسة وشؤون المملكة، والقرابة العميقة التي نشأت بيننا بسبب الزواج.

استضافت "توزين" في جناحها الأميرة "توسمان" التي ستغدو بعد أيام ملكتي المتوجة، واستغرقهما الحديث في أمر الاستعدادات للعرس الكبير المرتقب.

أدى الملك شيشنق واجب الحضور ومباركة الزواج، ثم انسحب في صمت متجها نحو مملكته، فيما انشغلت أنا بالترتيب للوضع الجديد، أرسلت قبيلة "جراوة" وفدا كبيرا كذلك، يعبر عن مكانتها الكبرى لدى الأمازيع، وكذلك فعلت قبيلة مصمودة، وباقي القبائل. لم يصبني الزهو بكل ذلك، بل أشعرني بمدى ما ينتظرني من صعاب، فحتما سيجعل كل هذا مملكتي محط أنظار الجميع. سيختلط الحسد بالغبطة والمحبة بالكره، وحتما سأدفع الثمن إن لم أحسن التعامل مع الأمر.

في يوم العرس تم تنظيم حفل كبير للفروسية، شارك فيه فرسان من جميع القبائل. كل قبيلة تميز فرسانها وخيولها

بعلامات وأزياء مختلفة.. من شرفة القصر تتبعت باغتباط هذا الحفل، الذي يحبل بالمعاني الرمزية العميقة. لقد أبهجتني الكفاءة التي أداها الفرسان في أداء فرجتهم، إنها تعبير عن الفرح بشكل منضبط يتضمن الكثير من أخلاق الحرب وشجاعة فرسانها، انتظمت الخيل في صف طويل.. الفرسان متحفزون.. سيوفهم في أيديهم، وحين أعطى رئيس الفرقة الإشارة، انطلقت الخيل متراكضة، تثير النقع من حولها، وسط انبهار الحضور بحركاتها المنسجمة، وفي لحظة ما اشتبك كل فارس معّ غريمه، وتبادلوا ضربات السيوف، في معركة وهمية، جعلت جميع المتفرجين يضعون أيديهم على قلوبهم خوفا من أن يصيب أحد الفرسان زميله.

بعد هذا الحفل الرمزي، الذي أظهر للجميع شجاعة فرساننا، واستعدادهم لخوض الحرب، ارتفعت الموسيقى في الأجواء، وتناوبت على الساحة فرق نسائية ورجالية، تبدع في رقصاتها الجميلة، يتحركون في صفوف متوازية، مشكلين منظرا بهيجا، يمتع البصر، ويدخل السرور على القلب. استمر الرقص

والغناء لفترة طويلة. ثم نحرت المواشي، وأعدت الولائم بأنواع من الطعام، الذي قدم للجميع سبعة أيام متتالية.

في المساء، كنت أتحدث مع أوسمان، الذي بدت السعادة على وجهه، فلم يستطع إخفاءها. لقد تحقق ما تصبوا إليه نفسه، وأظن أنه سيقضي حياته سعيدا. لقد كنت على علم بما يعتمل داخله من عواطف تجاه " توزين"

وها هو أخيرا يظفر بالزواج به. وأظفر أنا بشخص جديد في عائلتي، بعد أن ظفرت بصداقته وإخلاصه.

أصبح الصباح، وجاء يوم جديد. وبدأت معه حياة جديدة، هأنذا أصبحت ملكا متزوجا، وأصبح أوسمان وزيرا متزوجا، كان علينا أن نلزم زوجتينا لفترة من الزمن، كافية لتبديد الشوق إليهما. لكن واجب الوطن سرعان ما نادانا، فلبينا نداءه.

اجتمعت بوزيري أوسمان، تحدثنا كثير في ما استجد من أمور، وقررنا أخيرا أن لا ننتظر حتى نتلقى ضربة الغزاة، التي بلا شك قادمة، اقترح أوسمان أن ننخرط في حرب استنزاف ضد الرومان، حتى لا نترك المجال لهم للاستعداد لحربهم، أو على

الأقل نجعلهم يرتبكون، فيستعجلون الحرب، فيرتكبون أخطاء نستغلها نحن أحسن استغلال.

جاءتنا الأخبار المتواترة، بوصول دفعة من الإمدادات عبر البحر، وأن الرومان منهمكين في نقلها إلى قلعة أخرى، لا تبعد عن الشاطئ سوى ببعض الكيلومترات. قلت لأوسمان:

– ما رأيك؟

نظري إلى نظرته المعتادة، حينما يدبر أمرا، ثم قال :

– سأقوم بالأمر.

مستغربا سألته:

– أي أمر؟

أبعد بصره عني ثم قال:

– سأهاجمهم.

نظرت إليه ..ابتسمت ..ثم قلت له:

– أنت مجنون.

واثقا من نفسه رد علي:

– لن ننتظر حتى يبنون قوتهم من جديد.

فكرت قليلا ، ثم رددت عليه:

– إن في الأمر مخاطرة مزدوجة.

بدت علامات الانشغال على ملامحه، نظر ألي بتمعن، ثم قال:

– ماذا تقصد؟

زينت وجهي بابتسامة خفرة، ثم رددت عليه:

– أنت تعرف ما أقصد.

لا أعرف. وضح كلامك.

– أنت عريس جديد، وتوزين لن تسامحني إذ حدث لك مكروه، ثم إنك أفضل رجل أثق فيه، فلا يمكن أن أجازف بحياتك.

مبتسما رد علي أوسمان:

– ليس في الأمر أي مجازفة.. لا تبالغ.. سأنظم هجوما خاطفا فقط..

استمر حديثنا هكذا بين شد وجذب حتى انتهى بنا الأمر إلى طرح أغرب، حينما قلت له:

– ما رأيك يا صديقي في أنني أنا تحديدا من سيقوم بهذا الأمر.

– هذا جنون.رد على كلامي مستغربا.

فأردفت موضحا:

– أنا أصبحت أعرف الرومان جيدا، وأعرف كيف أتعامل معهم.

متظاهرا بالحزن قال أوسمان:

– أعتذر يا صديقي ويا ملكي، إنك تريد أن تحرمني من المجد، وترغب في أن تستأثر به لنفسك.

قهقهنا معا، ثم قلت له :

– هل تعرف الدافع الحقيقي لرغبتي في القيام بذلك.

مستفسرا رد علي أوسمان:

– لقد حيرتني، حقيقة لا أدري عن الأمر شيئا.

ابتسمت له ابتسامة صادقة، ثم أجبته :

–إنها الصدفة.

مصعوقا عقب قائلا:

– الصدفة ثانية، لا أفهم.

– بل تفهم يا صديقي، إنها تميمتي، وستحميني من كل شر، سأهاجم الرومان وكأنني أقوم بنزهة.

– إذن سلمها لي ودعني أقوم بالمهمة.

–لا أبدا. إنها لي. أنت لك نجمتك.

شربنا بعض الكؤوس، وانتشينا قليلا، تحدثنا في أمور تجمع بين الجد والهزل، ثم غادر كل منا صوب مضجعه.

طلبت من أوسمان صباح الغد أن يجمع الفرقة، التي هاجمت قلعة الرومان سابقا، لم يستغرقه وقت طويل لفعل ذلك. تلقيت إشارة باجتماعهم. غيرت ملابسي، ارتديت ملابس الجند بسرعة والتحقت بهم.. لم أجد صعوبة في شرح المهمة الجديدة لهم، وضعت مخططا للهجوم، محددا المكان الذي سنستهدفه. كان الرجال جنودا محترفين، يتمتعون بكثير من القوة، وحضور البديهة وإخلاصهم للمملكة، كانوا هادئين ومتحمسين. سرعان ما يستوعبون المطلوب منهم.. بعد أن اطمأننت إلى أن الأمر يمضي بأحسن مما توقعت. تركت

الجنود في ذمة أوسمان، ليستمر في تدريبهم، فيما عدت أنا إلى القصر، لأبعث بعض الرسائل إلى الملوك ورؤساء القبائل، لإخبارهم بالخطوط العريضة لما سأعتزم القيام به، دون الخوض في التفاصيل، حتى أتجنب أسباب الفرقة، بأن يدعي أحدهم بأنني لم أستشرهم في ما اتخذته من قرارات الحرب.

أعرف أن هناك دسائس تحاك ضدي في الخفاء، يزعم فيها حائكوها بأنني سأجر الأمازيغ إلى حروب لا قبل لهم بها. وبأنني مدفوع بفورة الشباب لا أقدر العواقب حق قدرها.

اجتمعت بالرسل، وخططت الرسائل بحضورهم، ثم حدثتهم بكثير من التفاصيل في الطريقة، التي يتعين عليهم التعامل بها مع الملوك ورؤساء القبائل حتى نتجنب أي رد فعل، قد يعرقل جهودنا الحثيثة لدحر الغزاة عن بلادنا.

كانت الخطة تقتضي أن تتنكر الفرقة المهاجمة في زي الجنود الرومان، لذا ركزنا في تدريبنا للجنود على تقليد حركات الرومان في تحركهم في فيالقهم. كما راعينا أن تكون وجوه المجندين قريبة الشبه بوجوه الرومان، فيما تكفل الحكيم

"يفاو" بتعليمهم بعض الكلمات والعبارات الرومانية. استمر التدريب على قدم وساق حتى توصلنا بخبر وصول سفينة جديدة، تحمل عتادا وجنودا، فقررنا التحرك.

الفصل التاسع

ودعت وزيري أوسمان وأوصيته خيرا بالمملكة والرعية، ثم تسللت إلى الجناح الذي تحتله توسمان في القصر، قضيت معها بعض الوقت، ثم عانقتها وودعتها وداعا يليق بعروس، أنعمت على عريسها بكل ما تمتلكه من لطف وحدب ودماثة خلق.

انطلقنا ليلا حتى لا نثير الشك في تحركنا.. توجهنا صوب الشمال، ثم ما لبثنا أن عرجنا على الغرب، حيث يوجد الثغر ، الذي يستوطنه الرومان. هناك تفرقنا، ودخل الثغر كل منا من طريق مختلف، بعد أن اتفقنا على إشارات محددة للتواصل في ما بيننا.

في لباس فلاح تنكرت، وقمت بجولة في الثغر المحتل. قادتني خطواتي إلى أماكن عدة، رأيت العديد من الجنود الرمان يتجولون في المدينة وقد علتهم خصلة من كبرياء. كانوا يمضون في طريقهم مدفوعين بإحساس من التفوق على من سواهم. فيما كان أهالينا يبدون في ذلة ، كادت تمزق نياط قلبي. لقد كانوا

متسخين وفي حالة مزرية، يعرضون خدماتهم على الرومان، الذين لا يكادون يلتفتون إليهم. رأيت كذلك النساء اللواتي يعرضن بضائعهن على الجنود. يضعن في السلال عددا من غلال الأرض، وينتظرن بصبر أن يقتني منهن جندي بعضا من الفواكه أو الخضر.

أثار انتباه جودة البناء في الثغر، لقد كانت البنايات قوية ومحصنة وتبدو خاضعة لتصميم مسبق. الشوارع كذلك مبلطة، وحجارتها مرصوفة بعناية تثير الإعجاب. تمنيت في أعماق قلبي لو يستتب الأمر لي وأنعم بفترة سلام طويلة، لأشيد مدنا شبيهة بما رأيته هنا.

حل المساء، فالتجأت إلى ركن من أركان الثغر، المنتشرة في كل مكان. لقد رأيت كثيرا من أهالينا يفعلون ذلك، فاقتديت بهم.

كنا قد تواعدنا على اللقاء في الصباح الباكر ، بعد أن نمنح أنفسنا فرصة التعرف على الثغر، مما ييسر لنا عملية الفرار بعد تنفيذ المهمة.

مر الليل بطيئا. كنت رفقة الأهالي الذين يقضون ليلتهم في الثغر، وهم في حالة من البؤس، ضاعفت من المرارة التي أشعر بها. قضيت جل الليل أتطلع إلى السماء، وأفكر في مصير شعبنا الممزق إلى ممالك وقبائل، لو اتحدت لتمكنت من قهر الغزاة، وبناء مستقبلها زاهرا وقويا.

ما إن أطلت بوادر النور الأولى حتى انتفضت واقفا، عمدت إلى سقاية عمومية، فغسلت وجهي. أدخلت يدي في جرابي، تحسست الصدفة، ثم أخرجت بعض الطعام ،فتناولته بسرعة، ثم سعيت في طريقي بحثا عن عناصر الفرقة المجندة. من بعيد بدا لي المجندون،كل منهم يمضي في زقاق مختلف. لم نتبادل أي كلمة بيننا، بل كانت الإشارات كافية. كان علينا أن نتسلل إلى الميناء، ومن هناك إلى السفينة التي تحمل العتاد العسكري. في تلك اللحظة تفاجأت بوجود كثير من أهالينا ينتظمون في طابور أمام الميناء، سألت أحدهم:

– ماذا يحدث؟ لم هذا الطابور؟

– إننا نبحث عن شغل، ستصل سفينة اليوم، وسيحتاجون إلى حمالين لإفراغ الشحنة.

التقطت الفكرة بسرعة.. غادرت المكان متعجلا، فأعطيت الإشارة للفرقة المجندة بالاجتماع. ظفرت بأحدهم بداية.. تمشيت بجانبه، ثم أخبرته بأن الخطة تغيرت، يجب أن ينضم المجندون إلى الحمالين، وهذا سيسهل أمر تسللهم إلى السفينة. ثم طلبت منه أن يبلغ الآخرين بالأوامر، حين اطمأنت إلى أنني بلغت الفكرة إلى المجندين، عدت إلى الطابور، لآخذ مكاني بين أهالينا. ولم يمض كثير من الوقت حتى انضم باقي المجندين إلى الطابور.. كانوا أقوياء، وقد يغرون الرومان لاختيارهم بالقيام بالمهمة. وبالفعل ما إن أطل علينا المكلف بإفراغ السفينة، حتى تم اختيار أكثرنا للعمل. فيما تخلف أحدنا أو اثنين على الأكثر. صعدنا إلى السفينة، وبدأنا في العمل، وما إن تراخت المراقبة من حولنا، حتى تبادلنا الإشارة، وانتحينا جانبا، غيرنا ملابسنا بسرعة، ارتدينا ملابس الجنود، مما حولنا في طرفة عين إلى جنود رومان حقيقيين، أخذنا نتجول على

ظهر السفينة، ثم ما لبثنا أن تسللنا إلى حيث توجد الأسلحة والتموين العسكري. صادفنا في طريقنا كثيرا من الجنود.. تبادلنا معهم التحية العسكرية، فلم يشك أحد في أمرنا، درسنا الموقف بعناية، فكان أن قررنا إشعال النار في السفينة. أخرجت من الجراب بعض الكبريت والمواد المقابلة للاشتعال. دسستها في أماكن عدة، وقد فعل المجندون نفس الشيء في أماكن أخرى من أطراف السفينة الكبيرة، ثم أوقدنا النار، فبدأت انفجارات الكبريت. يتردد صوتها في المكان.. ارتفعت أصوات الجميع محذرة من النار. غادرنا مع الجنود المهرولين خارج السفينة. انتحينا جانبا، غيرنا ملابسنا، ثم انطلقنا هاربين خارج الثغر المحتل، اجتمعنا في المكان المحدد. من هناك راقبنا النيران التي تلتهم السفينة ومنها انطلقت إلى باقي السفن والميناء كذلك. اطمأننا إلى نجاح مهمتنا، فانطلقنا عائدين نحو مملكتنا، بعد أن أصبنا الرومان ثانية في مكان موجع.

انتشر خبر العملية في بلاد الأمازيغ، وتأكد الجميع من أن الحرب قادمة لا ريب، وأن الرومان لن يستمروا في تجاهلهم

لما يحدث، بل لا بد أن يضربوا ضربتهم الموجعة. تلقيت وفودا من الممالك والقبائل، جميعها تعد بتقديم الدعم المعنوي، ومستعدة للمشاركة في الحرب إن استعرت أوراها. كنت واقعيا ومنطقيا، أعرف أن كثيرا من الملوك يتحدثون أكثر مما يفعلون، وربما يلعبون لعبة مزدوجة، ففي الوقت الذي يبعثون إلى مملكتي بالوفود، من يدري أنهم يرسلون الرسائل إلى الرومان ليبرئوا أنفسهم مما حدث.

بعد أيام قلائل حدثت المفاجأة الكبيرة، التي لم يتوقعها أحد، ففي صباح أحد الأيام حيث كنت أستعد لاستقبال يوم جديد بأتعابه ومسؤولياته، فإذا بالحاجب يركض نحوي وقد تغير لون وجهه، كان حائرا ومرتبكا، سألته:

– ما الأمر ؟

استجمع شتات ذهنه وأجاب:

– لن تصدق أيها الملك.

– ماذا ؟ تحدث.

– الرومان.

– ما بهم؟

– أرسلوا رسولا إليك.

حقا؟

– نعم إنه على بابك ينتظر.

– غريب.

– هل تأذن له بالدخول؟

– لا دعه ينتظر قليلا.

– أمرك أيها الملك

هم الحاجب بالانصراف فأوقفته قائلا:

– ادع " أوسمان" للحضور إلي.

– نعم سيدي الملك.

ظللت أقلب الموضوع في ذهني، أحاول أن أخمن ما يسعى إليه هؤلاء الرومان بإيفادهم رسولهم إلي. هل يسعون إلى تهديدي أم التعرف علي عن قرب؟

أم في ماذا يفكرون.؟

انتزعني حضور " أوسمان" من الاستمرار في التفكير في هذا الحضور المباغت لرسول الرومان. استقبلته بحفاوتي المعهودة، ثم قلت له :

– احزر ما الذي يحدث؟

نظر إلي نظرة لامبالية، ثم قال:

– هل سنبدأ صباحنا بالألغاز؟ أعطني إشارة.

– الرومان

– هل الحرب ستنطلق؟

– لا لا أعتقد ذلك ؟

– ماذا إذن؟

– لقد بعثوا لي رسولا.

– حقا؟ لا أصدق ذلك.

– عليك أن تصدق

– أين هو؟

– إنه ينتظر الإذن بالدخول.

مستغربا سألني أوسمان :

– وماذا تنتظر لتأذن له؟

ابتسمت ابتسامة زئبقية، ثم رددت عليه:

– دعه ينتظر قليلا، أنا أفهم هؤلاء الرومان.

مستغربا استفسرني أوسمان:

– كيف؟

محاولا شرح الأمر قلت له:

– إنهم يلتجئون إلى هذه الحيل الصغيرة للتأثير في مفاوضهم، ولتبليغه رسالة أبلغ مما لو نطقوا بها. فلنستعمل معهم نفس السلاح.

متحمسا عقب أوسمان:

– الحقيقة إنني متشوق لسماع ما لديه.

بهدوء رددت عليه:

– أنا كذلك متشوق، لكن لا بد من التريث.

ناديت الحاجب ثانية، طلبت منه إحضار الحكيم " يفاو"، فانصرف مستعجلا لإرسال من يحضره.

كنت وصديقي أوسمان في حالة من التوتر. لكننا تمسكنا بالصبر، لزمنا الصمت للحظات، لكن ما إن هل علينا الحكيم "يفاو" حتى انتفضنا واقفين نرحب بقدومه. جلس الحكيم دون أن يسألني عن سبب دعوته، فبادرت إلى القول:

– هل تعرف أيها الحكيم لم دعوتك هذا الصباح؟

ابتسامة خفيفة .. ارتجفت حيية على شفتيه، نظر إلي نظرة احترام، ثم قال:

– أنا دوما في خدمة ملكي.

رددت عليه بابتسامة أكثر رحابة، ثم قلت له:

– لقد جاءني هذا الصباح رسول من الرومان. وأريدك أن تحضر معنا، لتسمع ما جاء يبلغنا به.

بهدوء عقب الحكيم قائلا:

– نعم، كنت أتوقع ذلك.

مستفسرا قلت له:

– كيف، أيها الحكيم؟

مرر قبضته على لحيته، ثم قال:

– هؤلاء القوم عمليون، ولا يتمسكون بالأوهام، يعرفون من أين يأتيهم الضرر، فيرغبون في تفاديه بأي ثمن، حتى ينشغلوا بمشروعهم الأكبر.

تأملت كلام الحكيم فبدا لي منطقيا وعميقا. لم أعقب عليه بشيء، وإنما طلبت من الحاجب أن يأذن لرسول الرومان بالدخول بعد لحظات، دخل الرجل يقتفي خطوات الحاجب. رجل يميل إلى القصر، لكن في ملامحه صرامة وقسوة، وعيناه تشعان ببريق ذكاء لا يخفى عن البصر. حيانا بلغتنا، فأذنت له بالجلوس.

كنت أظن أننا سنحتاج لمترجم لنفهم كلامه، بيد أنه فاجأني بتمكنه من لغتنا.. يتحدث بها وكأنه واحد منا. وهذا أول درس تعلمته من هذه الجلسة الطارئة، في تلك اللحظة اتخذت قرارا بأن يتعلم بعض جنودنا لغة الرومان. نظرت إلى الرجل نظرة متفحصة، فبدا لي جنديا مثاليا ملما بأسرار وظيفته. كان يجلس بشكل مدروس، ليكون مستعدا لكل طارئ. في نفسي حييت شجاعته، فأن يقدم على هذا الأمر، مع علمه بأنه

قد يقع أسيرا في مملكتنا، كما فعل قومه بوفدنا، فذلك مما جعلني أحترمه وأقدره.

امتد بعض الصمت بيننا للحظات. ثم تحدث أوسمان قائلا:

– تفضل. الملك يصغي إليك.

تردد لحظة ثم قال:

– يجب أن يكون كلامي مع الملك على انفراد.

نظرت إليه نظرة متفحصة، ثم رددت عليه:

– إذن لا حديث بيننا. يمكننا أن ترحل في أي وقت.

تفاجأ الرجل بهذا الرد، فاستدرك قائلا:

–كما تشاء أيها الملك.

أشرت بيدي في اتجاهه، ثم قلت له:

– تفضل إذن.

اكتسبت عيناه بريقا لامعا يدل على حضور بديهته، تحرك في مكانه، ثم قال:

– لدي مقترحات محددة.

دون أن أنظر إليه خاطبته قائلا:

– أنا أصغي إليك.

صوب نظره نحوي بحدة، ثم قال:

– بداية نحن نعرف أن رجالك هم الذين اعتادوا على قلعتنا وعلى مينائنا.

قاطعته قائلا:

– القلعة والميناء ينتميان إلينا. إنهما في أرضنا وأنتم المعتدون.

– ليس صحيحا. لكن لا بأس.

– نعم أكمل.

– يقترح القائد العام هدنة مع مملكتكم.

فكرت قليلا في الاقتراح، ثم رددت عليه:

– هذا إذا كانت مملكتنا من قام بما تزعم.

ظهر بعض الغضب على ملامح الرجل، لكنه كبته، ورد قائلا:

– لدينا مصادرنا التي تخطئ. ونحن متأكدون من أنكم أنتم الفاعلون.

– لنفترض ذلك. لكن لكي تقوم بهدنة لا بد أن تكون هناك حرب ونحن لسنا في حرب معكم.

– ما قمتم به يعد في عرفنا إعلانا للحرب.

– ماذا تريدون بالتحديد.

– إيقاف جميع الأعمال المعادية.

– بمعنى أنكم ستتوقفون عن الاستيلاء على أراضينا.

– نحن لم نستول على أي أرض تابعة لمملكتكم.

– أنت لا تفهم. انطلاقا من البحر شمالا وغربا، وفي امتداد الجنوب حتى الصحراء، وشرقا حتى بلاد مصر. كل تلك أراضي أمازيغية، يجب عليكم الكف عن الاعتداء عليها.

– هذا كلام عام، ولا يفيد في شيء، وأكثر من ذلك غير دقيق.

– ماذا تعني؟

– أعني أن الممالك الأخرى لا تعنيك في شيء، لأن لها من يحكمها وتربطنا بها اتفاقات سرية.

– ماذا تقول: أي اتفاقات؟

– هذا ما يجب أن تعرفه. ففي الوقت الذي كانت فيه مملكتك تعتدي علينا بأعمال إرهابية، وقعت باقي الممالك اتفاقات معنا، بعدم الدخول في حرب أو مناوشات عسكرية.

– هذا كلام غير صحيح؟

أخرج الرجل من جرابه بعض الاتفاقيات المختومة بطابع الرومان وطوابع ممالك أمازيغية.. أخذتها بين يدي ثم مددت نحو الحكيم "يفاو" فقرأ ما تضمنته ثم توجه لي بالكلام قائلا :

– صحيح ما يتحدث به الرجل.

في تلك الأثناء أشار لي أوسمان، بضرورة التشاور فيما بيننا. تركنا الرجل هناك، وانتقلنا إلى غرفة جانبية. تحدث أوسمان وقال:

– الرومان ملاعين. يجب الحذر منهم.

فيما قال الحكيم "يفاو":

– يجب استغلال الفرصة، وتوقيع اتفاقية، ننعم فيها بعض المكاسب، في انتظار أن تصبح الظروف مواتية للحرب.

عدنا إلى القاعة الكبرى. كل منا احتل مقعده. نظرت إلى الرسول ثم قلت له:

– ما المقابل الذي تقترحونه لإبرام هذا الاتفاق.

– لا شيء، سوى أننا سنلتزم بعدم مهاجمة مملكتكم.

– ممتاز. وهل تسمى هذا مقابلا. أعرف أنه لو كانت لكم القدرة لفعل ذلك، لما ترددتم لحظة في القيام به.

– في هذا الأمر أنت محق.

أعجبتني صراحته، فازددت له تقديرا، ثم قلت له حاسما أمري:

– اسمع أيها الروماني. سأتظاهر بأنك لم تزرني أبدا، عد إلى قائدك وأخبره بأنني أرفض أي اتفاق معه، ما لم يشمل بندا يحدد موعد مغادرتكم لبلادنا، وإلا فلا تنتظروا منا إلا المقاومة بما يتيسر لنا من إمكانيات.

نظر إلي وزيري أوسمان والحكيم "يفاو" نظرة معبرة. تتضمن تشجيعا لي على المضي في نفس الاتجاه.

حملق الرسول الروماني في وجهي نظرة عدائية، ثم قال :

– إنها فرصة لا تعوض أيها الملك. فكر جيدا.

أشحت عنه بوجهي وقلت له:

– أنت ضيفي فاهنأ بالإقامة عندنا، وأتمنى أن تغادر غدا صباحا مملكتنا، وإلا ستصبح في عداد الغزاة.

أشرت للحاجب فتقدم نحونا، وطلب من الرسول أن يتبعه ليقوده نحو الغرفة، التي سيقضي فيها ليلته.

مكثت في مكاني بعض الوقت أقلب الذهن فيما حدث ويحدث، وقد تملكني إحساس بأنني أخطو خطوات حاسمة نحو مصيري الغامض. انتزعت نفسي بعد حين من شرودها.. التفت نحو الحكيم "يفاو" وسألته:

– ما رأيك فيما حدث؟

فكر للحظات ثم قال:

– ممارسة السياسة لها وجهان. وجه المبادئ ووجه المصالح، وقد رأيت أنك غلبت الوجه الأول وجه المبادئ، فأتمنى لك التوفيق وإن كان الأمر صعبا، خاصة بعد الخذلان الذي اكتشفناه من قبل باقي الممالك.

اكتفيت بما سمعته من الحكيم، فطلبت رأي وزيري أوسمان، فتفضل قائلا:

– أنت تعرف يا ملكي أنني معك في كل ما تتخذه من قرارات. لا أخفي أنك فاجأتني بكلامك. لكنه أعجبني، وتمنيت من أعماق قلبي لو كنت أنا قائلة.

صباح الغد غادر الرسول الروماني مملكتنا متجها صوب الثغور التي يحتلها قومه. لم أندم على القرار الذي اتخذته، لكنني استشعرت الخطر منه، خاصة بعدما عرفت ما أقدمت عليه باقي الممالك بإبرامها لمعاهدات، تلتزم من خلالها بعدم المشاركة في أي عمل معاد ضد الرومان.. بالطبع احبطني ذلك، لكنني التمست الأعذار لهم جميعا، فمن ذا يستطيع الوقوف ضد القوة الغزاة الضاربة إلا مجنون أو مغامر، ويبدو ان هذين الوصفين ينطبقان علي تماما. هذا بالضبط ما نطق به وزيري أوسمان، الذي بدأ منذ ذلك الحين يحرضني على القيام بعملية جديدة ضد الرومان، حتى لا نترك لهم الفرصة لاستجماع الأنفاس. كان يقول ذلك وهو يشير إلى قصة الرسول

الذي جاءنا محملا بوعوده المغرية الفارغة. فقدومه إلينا يدل على قوة و تأثير ما تعرضوا إليه من قبلنا.

وعدت وزيري بأنني سأفكر في الأمر بحكمة و روية، لأنني أرغب في أن تكون عمليتنا القادمة نوعية وقاصمة، بعد أن فقدت الأمل في الهجوم الكاسح، الذي منيت به النفس زمنا طويلا. لقد كنت معولا في تنفيذ ذلك على جنود ممالك الأمازيغ وقبائلهم، بحيث يزحف كل جيش من جهة معينة، فنحاصر الرومان لمدة من الزمن، ونقطع عليهم الإمدادات، حتى يستسلموا، وينصرفوا مدحورين منهزمين إلا بلادهم وراء البحر.

الفصل العاشر

استمتعت رفقة زوجتي توسمان بأيام وليال سعيدة، لقد كانت نعم الزوجة. جميلة وعطوفة ورقيقة، تعطي بلا تمنع ولا تردد.. لقد أحبتني بحق، حتى أنها لم تعد تذكر مملكتها وأسرتها المالكة. أنا من جانبي ضربت صفحا عما بلغني من عقد الصلح، الذي يمكن أن يكون أبوها قد عقده مع الرومان. لقد التمست له الأعذار، خاصة وان مملكته تتاخم المنطقة التي يسيطر عليها الرومان، ومن حقه أن يحمي مملكته بالطريقة التي تبدو له مناسبة. فقط تمنيت لو أنه أخبرني بذلك. لم أتوقف عند الأمر كثيرا. لكنه علمي درسا جديدا بأن تكون طموحاتي وتخطيطاتي مبنية على ما أتوفر عليه حقيقة، وليس على ما يمكن أن أتوفر عليه بمساعدة الآخرين.

مر أكثر من شهر على زواجي ففاجأتني توسمان ذات صباح بإخباري بأن تغيرات قد طالتها، وبصوت حنون أردفت قائلة:

– يبدو أنني حامل.

أسعدني هذا الخبر كثيرا فقررت أن أقدم الأضاحي لأرواح الأسلاف من أجل أن تبارك نسلي. وتيسر له القيام بما بدأته. ناديت وزيري أوسمان وأخبرته بالخبر السعيد.. ظهر الابتهاج على ملامحه، ثم أردف قائلا:

– يبدو وأن قدرينا متشابهان إلى أقصى الحدود.

مستغربا سألته:

– ماذا تقصد بكلامك هذا؟

ابتسم ابتسامته المتألقة، ثم أجاب قائلا:

– يبدو أن توزين حامل كذلك.

أذهلتني المفاجأة وإن كنت أتوقعها، فعقبت قائلا:

– إذن لابد من حفل كبير تستحقه المناسبة.

– نعم ملكي وصديقي ..نحتاج إلى حفل كبير يمحو بعض الكدر، الذي علق بنفسك منذ زيارة الرسول لك.

– نعم صديقي ما أسوأ الخيانة.. لقد طعنوني باتفاقاتهم تلك.

– لا عليك. لا شيء يستمر على حاله. حتما ستتغير الأمور بعد حين.

– نعم أعول على ذلك. فإن لم نقم نحن بالمهمة، فحتما سينجزها أبناؤنا أو أحفادنا.

بدأت الاستعدادات للاحتفالات بما يليق بالمناسبة الكبيرة، بالرغم من كل شيء وحفاظا على تقاليد الود، دعوت ملوك الأمازيغ وقبائلهم ..أوفدت وفودا لدعوتهم. لقد أردته حفلا يجمع أكثر مما يفرق.

جاءت الفرق الموسيقية من كل مكان، وحضر الكهان والكاهنات والمنجمون والمنجمات من داخل المملكة ومن خارجها.

في اليوم الموعود نصبت الخيام، وعلقت الأعلام في كل مكان واجتمع عليه القوم وعامتهم،كل منهم يساهم في الحفل بطريقته. قمنا بزيارة للكهوف، فقدمنا الأضاحي هناك لأرواح الأسلاف، ثم عدنا إلى ساحة القصر، ونحرنا الأكباش ووزعت

على الفقراء. ثم بدأ الحفل صاخبا وقويا، فيما كان إعداد الولائم على قدم وساق، لتقديمها لضيوف المملكة.

في المساء المتأخر اجتمعت ببعض رؤساء الوفود في القصر. بجانبي يجلس وزيري أوسمان وغير بعيد عني يقتعد الحكيم يفاو مقعده الأثير.. استرسلنا في الحديث في مواضيع شتى، الجميع يحاول تقديم أفضل ما عنده، شربنا بعض الكؤوس، التي أطاحت بالتحفظ، الذي يرين بثقله على النفوس في مثل هذه المناسبات، فانطلقت الألسن تتبارز في إتحاف جمعنا بالطرائف والمستملحات.. في لحظة ما لا أدري كيف امتدت يد أحد رؤساء الوفود الذي ينتمي إلى قبيلة أمازيغية إلى حزامه، واستل خنجرا، يبدو أنه اطمأن إلى أن الخمر لعبت بالأدمغة والعقول، انتفض من مكانه ثم هجم علي هجوما متقنا لا يخيب مقصده. في تلك اللحظة بالذات انتبه أوسمان إلى الرجل، وبسرعة البرق، ارتمى في حضنه متلقيا الضربة عني. أصابه الخنجر في صدره لكنه ظل متمسكا بالرجل مانعا إياه عن الإتيان بأي حركة، فهاجمه الجمع في تلك الأثناء وطوقوه .

أخذت صديقي بين يدي، كان يرتجف.. أدمعت عيناي.. حضنته في صدري، حركني بيده. انتبهت إلى حركة شفتيه، فإذا به يقول لي:

– لقد عشت ملكا وصديق ملك ومت ملكا وصديق ملك. شكرا لك يا غيلاس.

انهمرت دموعي أكثر.. بدأت أصرخ طالبا النجدة، لكنه طلب مني أن أصغي إليه. امتثلت له فقال:

– اهتم بنجمتي.

أحسست بكرب الدنيا، يهوي على رأسي.. نشجت باكيا فإذا بأوسمان يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يدي.

أقمت الحداد في مملكتي أسبوعا كاملا، اعتزلت خلاله الناس، ومتع الحياة. لقد شعرت باليتم، وبأنني فقدت إلى غير رجعة جزءا كبيرا مني، لا يمكنني أبدا تعويضه .

منذ ذلك الحين أصبح ثأري من الرومان ثأرا شخصيا. لقد وعدت نفسي أن أحيا من أجل ذلك، حتى لو كلفني الأمر

التخلي عن مملكتي واللجوء إلى الجبال قرب أرواح أسلافي، للاستمرار في مهمتي المقدسة.

سيرة ذاتية مصطفى لغتيري

من مواليد 1965 بالدار البيضاء

عضو المكتب التنفيذي لاتحاد كتاب المغرب سابقا

رئيس الصالون الأدبي المغربي سابقا

الجوائز الحاصل عليها:

- جائزة النعمان الأدبية في القصة القصيرة من لبنان
- جائزة ثقافة بلا حدود في القصة القصيرة جدا من سوريا.
- جائزة دار الحرف في الرواية من المغرب.
- تكريم جمعية المترجمين واللغويين العرب.

الإصدارات:

- 27 كتابا في الرواية والقصة القصيرة والرحلة والبحث التربوي والنقد الأدبي.

من بينها:

– هواجس امرأة – مجموعة قصصية– وزارة القفافة الرباط 2001.

– رجال وكلاب – رواية – أفريقيا الشرق الدار البيضاء 2007

– عائشة القديسة رواية دار النايا سوريا 2008

– الأدب في خدمة التربية – كتاب تربوي – دار الوطن 2014.

–الأطلسي التائه رواية دار الآداب 2015

–أحلام المسيسيبي على ضفاف سبو – رواية دارالر فاعي مصر – 2018.

الفهرس

الفصل الأول.....3
الفصل الثاني.....25
الفصل الثالث.....43
الفصل الرابع.....69
الفصل الخامس.....82
الفصل السادس.....88
الفصل السابع.....110
الفصل الثامن.....125
الفصل التاسع.....150
الفصل العاشر.....170

MUSTAPHA LAGHTIRI

تراتيل أمازيغية هي رواية و عمل أدبي للكاتب المغربي مصطفى لغتيري وتتحدث الرواية عن قصة لمملكة أمازيغية مزدهرة، حيث تنسج علاقة قوية بين أميرها - الذي سيصبح فيما بعد ملكا - مع أمير إفريقي اختطفه النخاسون وباعوه في المملكة الأمازيغية.

عن ويكيبيديا

حفلت الرواية بأجواء أسطورية وأحداث خيالية وشخصيات واقعية وأخرى عجائبية.. ذلك ما يجعلنا نتساءل أي خيال يمتلكه هذا الروائي.. وأي قدرة على تقديم تلك الأجواء المدهشة حتى أن القارئ يتمنى أن يرى تلك الأرض وتضاريسها وانسانها.
محمد الغربي عمران روائي يمني

الرواية تدور حول انخراط أميرين (غيلاس وأوسمان مع الفرس زدجاك) في حرب استنزاف ضد الغزاة الرومان الذين عاثوا في الأرض فسادا، وخاصة بعد اختطافهم لأميرة أمازيغية، فقدم الأميران دروسا بليغة في البطولة والنجدة وكرم الأخلاق. الرواية وان كانت تحمل هموما تاريخية، إلا أنها تلفت النظر لجزء منهم من الموروث الأمازيغي.
عن موقع تيون أسان الأمازيغي.

مطبعة ورقة بلال
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
Tel/Fax: 05 35 61 86 03
FES - www.imp-bilal.com